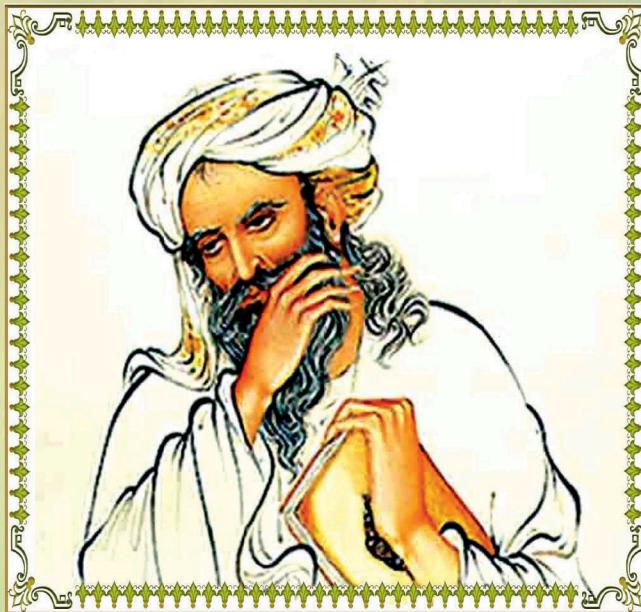


وزارة الثقافة
البيئة العامة السورية للكتاب

السهروردي

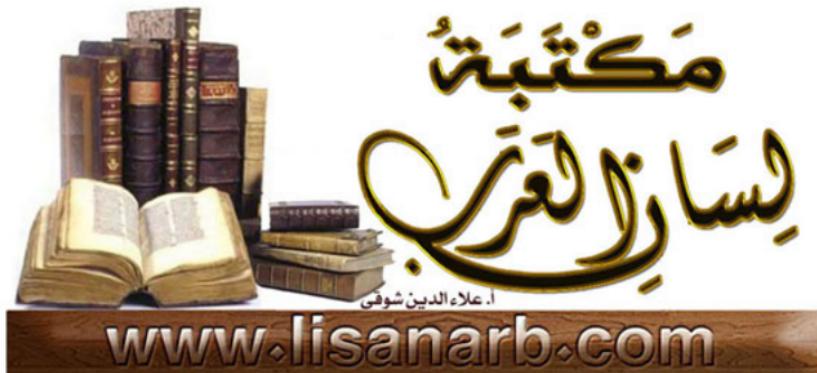
مؤسس الحكمة الإشراقية
(دراسات ومحاترات)



عبد الفتاح رواس قلعة جي

آفاق
ثقافية





السهروري

مؤسس الحكمة الإشراقية

آفاق ثقافية



مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com رابط بديل

رئيس مجلس الإدارة
الدكتورة ليان مشوح
وزيرة الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول
د. وضاح الخطيب

المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب

رئيس التحرير
د. نهاد جرد

عبد الفتاح رواس قلعه جي

الشهروري

مؤسس الحكمة الإشرافية

(دراسات ومحاترات)

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣ م

آفاق ثقافية

العدد (١١٦)

كانون الأول ٢٠١٢ م

السهروردي مؤسس الحكمة الإشرافية : دراسات
ومختارات / عبد الفتاح قلعه جي . - دمشق : الهيئة العامة
السورية للكتاب، ٢٠١٣ م - ١٣٦ ص؛ ٢٠ س.م.

(آفاق ثقافية؛ ١١٦)

١ - العنوان ٢١٨,٩١ ق ل ع س ٢ -

٣ - قلعه جي ٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

حياته وعصره

كان العصر الذي عاش فيه السهوروبي عصراً مضطرباً، وكان العالم الإسلامي في المناطق الساخنة موزعاً بين فوى متعددة، فالخطر المغولي يتواضع بهزائم الخوارزمية، والزنكيون أمراء الموصل وسنجار، وفي ديار بكر وقونية والأناضول كان السلاغقة، والبيزنطيون في القسطنطينية، والإمارات الصليبية في أنطاكية والساحل السوري تهدد المدن الشامية الكبرى ومصر، والإمدادات المستمرة تصلها من أوروبا، والخلافة العباسية في بغداد ضعيفة بعد أن تفككت أوصال إمبراطوريتها، وسلطت قوى متعددة على الخلفاء الذين غرقوا في البذخ واللهو. وفي هذه الفترة تابع صلاح الدين الأيوبي ما بدأه أستاذه الملك العادل نور الدين بن زنكي النضال ضد الإفرنج. وفي سبيل ذلك عكف على توحيد مصر وبلاد الشام تحت رايته. فقد أنهى حكم الخلافة الفاطمية في القاهرة وتحول الولاء إلى الخلافة في بغداد، واتخذ دمشق عاصمة له، ثم دخل حلب عام

١٤٣١ هـ = ملكها الشاب الصالح إسماعيل بن نور الدين زنكي عام ٥٧٧هـ وولى عليها ولده الشاب الملك الظاهر غازي، وأحاطه ببطانة من الفقهاء والعلماء .

في هذا المناخ الذي التحتمت فيه السياسة بالثقافة كان ينظر بعين الريبة إلى كل دعوة باطنية، توجساً من أن يستعيد أتباع الفاطميين مواقعهم في العالم الإسلامي، وكان من سوء حظ السهوروبي أن ذهبت حياته ضحية هذه الصراعات السياسية بصورة مؤلمة ومؤسية. وكان من الطبيعي أن يقع التصادم بين السهوروبي الفيلسوف الصوفي الإشراقي، بكل ما كان يتتصف به من ثقافة موسوعية منفتحة على علوم الغرب والشرق، مع حماس الشباب، واعتداد بالذات، وشجاعة فكرية إلى حد التهور، وبين فريق من العلماء والفقهاء الأشاعرة الذين يعادون الحرية الفكرية، ويتوجسون شرًّا من عودة الفكر المعتزلي الذي يقدم العقل على النقل، ويحاربون الفلسفة، ويعادون الصوفية، خوفاً مما قد تشتمل عليه من فكر باطني. وكانت حلب بالنسبة لصلاح الدين في غاية الأهمية، فقد كانت مدخل الدولة الأيوبية إلى كردستان، ذلك الخزان الذي كان يستمد منه المقاتلين من أبناء القبائل الكردية في الظروف الحرجة، كما إنها كانت صلة

الوصل بين الجيوش الشامية في عهدي نور الدين وصلاح الدين وبين أمراء الموصل والأناضول الذين كانوا يشتركون في القتال ضد الصليبيين حين يُطلب منهم.

انعكست هذه الأحداث والمتغيرات على حياة السهروردي وشخصيته، ومن خلال النظر في حياة شهيد الإشراق تبدو لنا شخصيته القلاقة المفعمة بالتوتر وعدم الاستقرار. ومن الواضح أنَّ نوازع القلق والتوتر في نفسه قد توافقت مع عصره المضطرب الذي عاش فيه. ذلك العصر الذي تصارعت فيه تيارات فكرية وعقائدية وسياسية متناقضة، وذلك في مواجهة أخطار قائمة تتمثل في الاحتلال الأوروبي الصليبي لأجزاء من الشرق العربي الإسلامي، وأخطار قادمة محدقة تتمثل في اقتراب الخطر المغولي.

❖ ❖ ❖

لا تذكر المراجع التي بين أيدينا تفصيلات وافية عن تاريخ مولد السهروردي بشكل دقيق وعن نشأته الأولى وتعليمه، ولا تلقي ضوءاً ساطعاً على نسبه وأسرته التي نشأ فيها، حتى إنَّ معظم المراجع ينقل بعضها عن بعض في الغالب.

قال ابن خلكان: هو أبو الفتوح يحيى بن حبس بن أميرك شهاب الدين السهروردي الحلبي الحكيم المقتول بحلب، وقيل

اسمه أَحْمَدُ، وَقِيلَ كُنْيَتُهُ اسْمَهُ وَهُوَ أَبُو الْفَتوحِ، وَذُكِرَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي أَصْبَعَةَ فِي طَبَقَاتِ الْأَطْبَاءِ أَنَّ اسْمَ السَّهْرُورِدِيَّ الْمُذَكُورُ هُوَ عُمَرٌ وَلَمْ يُذَكِّرْ اسْمَ أَبِيهِ، أَمَّا وَصْفُهُ بِالْمَقْتُولِ فَلَئِلًا يُعَذَّ شَهِيدًا، لَكِنْ تَلَامِيذهُ عَدُوُهُ شَهِيدًا، لَأَنَّهُ قُتِلَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَوُشَايَةً وَتَحْزَبَ مِنْ خَصْوَمِهِ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ اسْمَ السَّهْرُورِدِيَّ هُوَ يَحْيَى، وَيَقْبَلُ بِـ«شَهَابُ الدِّين» وَيُوصَفُ «بِالْحَكِيمِ»، وَ«الْمُؤَيَّدُ بِالْمُلْكُوتِ»، وَلَقْبُهُ تَلَامِيذَهُ بـ«الْشَّهِيدُ»، وَاشْتَهَرَ بِالشِّيخِ الْمَقْتُولِ. وَلَدَ عَامَ ٥٤٩ هـ = ١٥٥١ م إِبَانَ الاضطراباتِ الْمُغْوَلِيَّةِ بِبَلْدَةِ سُهْرُورْدُ مِنْ أَعْمَالِ زَنجَانَ مِنْ عَرَاقِ الْعَجْمِ، وَهِيَ بَلْدَةٌ تَقْعُدُ بِالْجَبَالِ فِي الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ مِنْ إِرَانَ فِي مِيَدِيَا الْقَدِيمَةِ، وَهُوَ صَاحِبُ «نَظَرِيَّةِ الْإِشْرَاقِ أَوِ الْحِكْمَةِ الْمَشْرِقِيَّةِ» وَيُعْرَفُ لَدِيِّ الْمُؤْرِخِينَ بِالسَّهْرُورِدِيِّ الْحَلَبِيِّ تَمْيِيزًا لَهُ عَنْ آخَرِينَ اشْتَرَكُوا مَعَهُ فِي النَّسْبَةِ، وَمِنْهُمْ:

عَبْدُ الْقَاهِرِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ السَّهْرُورِدِيِّ (٤٩٠- ٥٦٣ هـ) = ١٠٩٧- ١١٦٨ م) وَهُوَ فَقِيهٌ شَافِعِيٌّ وَاعْظَمُ مُنْصَوِّفٍ، وَلِيَ الْمَدْرَسَةِ النَّظَامِيَّةِ، وَتَوَفَّى فِي بَغْدَادٍ، وَمِنْ تَالِيفِهِ: آدَابُ الْمَرِيدِينَ فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِيِّ (مُخْطُوطٌ)، وَغَرِيبُ الْمَصَابِيحِ (مُخْطُوطٌ)، وَهَذَا يُعْرَفُ بِالسَّهْرُورِدِيِّ الْبَغْدَادِيِّ. وَإِلَيْهِ تَعُودُ

الطائفة السهوردية التي كان لها دور فعال في الموسيقى الهندية وبخاصة الشيخ بهاء الدين زكريا من مدينة ملتان (في باكستان اليوم)، فقد ترك تأثيراً عميقاً في الموسيقى الهندية وبخاصة في الأغاني الشعبية في البنجاب والسندي.

وأبو النجيب السهوردي (ت: ٥٦٣ هـ).

والسهوردي: شرف الدين أبو الروح عيسى بن محمد بن محمد بن قراجا الصوفي: توفي ٦٢٧ هـ اجتمع بأخوان الصفا، مات سنة سبع وعشرين وستمائة، ولم تذكر الترافق تاريخ مولده.

والسهوردي: محمد بن حمزة الشهير بـ «آق» شمس الدين ابن العارف بالله الشهاب السهوردي نشأ بدمشق ثم مع والده وهو طفل الروم، كان طبيباً للأبدان كما كان طبيباً للأرواح، وله في الطب تصانيف وله رسائل كثيرة في التصوف والطب، ولم تذكر كتبُ الترافق له تاريخ مولد ولا تاريخ وفاته، ولم تأت على ذكر تصانيفه.

والسهوردي محمد الأمين بن عبد الرحمن (١٢٥٢ - ١٣٢٠هـ) = (١٨٣٦ - ١٩٠٢م) ولد وتوفي في بغداد، وهو أديب ومدرس وعضو محكمة الاستئناف ومدير بلدية سامراء، ومن تأليفه: تاريخ بغداد، ومجموعة أدب، وديوان شعر.

❖ ❖ ❖

بدأ شهاب الدين السهروردي يحيى بن حبس حياته العلمية بمراغة من أعمال أذربيجان وقرأ فيها الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي وهو شيخ الإمام فخر الدين الرازي، ثم ارتحل إلى أصفهان، فأتم دراسته هناك وأنفق شطراً من عمره في التقلل والأسفار مهتماً بارتياد منتديات وجماعات العلم والفكر والصوفية، محباً للوحدة التي هيأت لحياته الروحية التأمل والسلوك في معارج أهل الطريق في البحث عن حقيقة نور الأنوار للترقي في درجات المعرفة واليقين، والوصول إلى الحقيقة الكبرى. كان أديباً شاعراً، أوحد زمانه في علم الحكمة عارفاً بالتصوف، ماهراً في أصول الفقه، مفرط الذكاء، عجيب القرية، طاف البلاد على طريق الفقر والتجريد، وكان شديد التشوّق لمقابلة شريك له في علومه ولم يحصل له ذلك، وكان يقول عن نفسه :

«وها أنا ذا قد بلغ سني إلى قريب من ثلاثين سنة وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والتفحص عن مشارك مطلع على العلوم، ولم أجد من عنده خبرٌ عن العلوم الشريفة ولا من يؤمن بها»^(١).

(١) المشارع والمطرحات ضمن مجموعة في الحكمة المشرقية ص ٥٠٥
تحقيق هنري كوربان طبعة إستبیول عام ١٩٤٥ م.

سئل فخر الدين الرازي عنه فقال: «ذهنه يتقد ذكاء وفطنة»، وسئل السهوروبي: أيما أفضل أنت أم أبو علي ابن سينا؟ فقال: إما أن نتساوى أو أكون أعظم منه في البحث، إلا أنني أزيد عليه في الكشف والتدوّق.

ارتحل الشهاب السهوروبي من أصفهان إلى بغداد ثم إلى ديار بكر بالأناضول جنوب تركيا، حيث أحسن استقباله الأمير السلجوقي عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق، وألف له كتاب الألواح العمادية، وبرغم رثاثة ثيابه وقلة اعتنائه بمظهره وزهره في أمور الدنيا، فإنه كان موضع الاحترام الكبير في ميافارقين. ولعل إقامته عند الأمير أثرت عليه في تكوين فلسفته، حيث التقت في هذا البلط الثقافة البيزنطية وريثة الفكر اليوناني الهلينستي مع الفكر الشرقي الإشراقي، ويجتمع هذا الخليط مع التراث الإسلامي إلى جانب التراث المسيحي.

يقول سعيد الدين محمود بن عمر المعروف بابن رقيق: «كان الشيخ شهاب الدين السهوروبي رثَّ البِزَّة، لا يلتفت إلى ما يلبس، ولا له احتفال بأمور الدنيا . قال: و كنت وإياه نتمشى في جامع ميافارقين وهو لابس جبة قصيرة، وعلى رأسه فوطة مفتولة، وفي رجليه زربول، فرأني صديق لي، فأتى إلى جنبي

وقال: ما جئت تماشي إلا هذا الخرابندا (أي المكاري)؟ فقلت له:
اسكت ! هذا سيد الوقت شهاب الدين السهوروبي.

انتقل السهوروبي بعد مifarقين إلى حلب واستقر فيها إلى
أن انتهت حياته تلك النهاية الفاجعة حيث أعدم عام ٨٧٥ هـ = ١٩١ م.



صفاته وطموحه

كان السهرودي معتدل القامة واللحية، أحمر الوجه، يسافر كثيراً على قدميه، وكان متجرداً زاهداً لا يحفل بالمال والثياب والمعريات الدنيوية، مقتصداً في حياته، محترقاً لكل مظاهر الأبهة والترف والسلطان، لم يمدح حاكماً أو سلطاناً، وكان واسع العلم حاد الذكاء سريع البديهة، فصيحاً ناصعاً البيان، جريئاً في الإفصاح عن أفكاره ومعتقداته إلى حد التهور، شديداً مفم القول في مناظراته، محاججاً لم يناظره مناظر إلا قطعه وأفحمه وظهر عليه، مما أواخر صدور العلماء والفقهاء عليه حتى أفتوا بدمه.

يقول تلميذه الشهريزوري متحدثاً عنه: «صاحب الصوفية واستفاد منهم شيئاً وحصل لنفسه ملكة الاستقلال بالفكر والانفراد، ثم اشتغل بالرياضيات والخلوات والأفكار حتى وصل إلى غايات مقامات الحكماء ونهاية مكاشفات الأولياء». ثم يقول: «وكانت له رياضات عجز أبناء الزمان عنها، منها أنه كان

يفطر في كل أسبوع مرة، وطعامه لا يزيد عن خمسين درهماً،
وقلَّ أن يوجد إن سرت طبقات الحكمة أزهد منه وأفضل»^(١).

يقول السهروري: «نعم الرفيقان الجوع والشهر، يُضعفان
أعداء الله من القوى بعقر مطايها، ويُعدان المستشرف لسنا
الإشراق، الفقر سوط الله ساق به الصديقين إلى فواضل
الدرجات».

قال ابن أبي أصيبيعة: حدثني الشيخ سعيد الدين محمود بن
عمر قال: كان شهاب الدين السهروري قد أتىشيخنا فخر
الدين المارديني، وكان يتتردد إليه في أوقات وبينهما صدقة،
وكان الشيخ فخر الدين يقول لنا: «ما أذكي هذا الشاب وأفصحه
ولم أجده مثله في زمانِي. إلا أنني أخشى عليه لكثرَة تهوره
واستهتاره وقلة تحفظه أن يكون سبباً لتلفه».

كان شديد الاعتزاز بنفسه وعلمه، وكان يرى أنه أعلم أهل
زمانه مما جعله طموحاً إلى احتلال المراتب العليا إلى حد
المُلْك، وهذا الطموح وحده كافٍ لأن يهلك صاحبه في زمن
التنازع على السلطة.

(١) الشهري . مقدمة هيكل النور ، بيروت: دار الهجرة، ١٩٩٢ ، ص ٧.

قال الشيخ سيف الدين الأمدي^(١): اجتمعت بالسهروردي في حلب، فقال لي: لا بد أن أملك الأرض، فقلت له: من أين لك هذا؟ قال: رأيت في المنام كأنني شربت ماء البحر، فقلت لعل هذا يكون اشتئار العلم وما يناسب هذا، فرأيته لا يرجع عما وقع في نفسه.

وللسهروردي شعر يؤكد ذلك، وقيل إنه تعرض به للملك الظاهر غازي ملك حلب، وربما وصلت إلى أبيه الناصر صلاح الدين فكانت سبباً لقتله، يقول في أبيات له:

وبي أملّ أني أسود وكيف لا
وآل بويه بعد فقرهم سادوا
وأحكم في أهل الزمان كما أشا
وأفعلن ما أختار في كلّ فاسق
وكان محباً للتطواف في البلاد على طريق الفقر والتجريد.
كانت مدن إيران والعراق والشام كلها حواضر بلاد واحدة متواصلة مترابطة ثقافياً وعلمياً، ولم يشكل بُعد المسافة بينها عائقاً لهذا التواصل ومواصلة الحوار بين مفكريها وأدبائها برغم مشقة الأسفار وأخطار الطرق، إلى أن قدم حلب فناظر أهلها

(٢) علي بن محمد، إمام الكلام وأحد جهابذة الإسلام، ولد سنة ٥٥١ هـ - بأمد وتنقل بين حلب وحمامة ودمشق.

واستهتر بهم وشطح وتحدى علماءها بكلمات الحكماء اليونان كأفلاطون وأرسطو وحكمة الفرس و المعارف الهند وبعبارات الصوفية وأفكارها ورموزها، وجهر بذلك. فحنن أمام شخصية طموحة تسعى لتلقي العلوم والمعارف والمناظرة بعلومها، وتلقي في سبيل ذلك من عنت السفر ومشقة الطريق وعداوة المترددين والجهلاء ما لا يتنبأ بها عن مداومتها للاستزادة.

قال الآمدي: «اجتمعت به فرأيت علمه أكبر من عقله». وينقل ابن الجوزي عن ابن شداد أنه قال: «أقمت بحلب للاشتغال بالعلم الشرييف ورأيت أهلها مختلفين في أمره (أي السهوردي)». وهذا الاختلاف فيه بسبب ما كان يكيد له الفقهاء والعلماء من أهل حلب، وذلك بسبب حسدهم إياه على علمه وذكائه، وبما كان في عصره من خوف من الدعوات الباطنية والصوفية الفلسفية.

ولم يكن يتقارب ويختلف إلى الحكام الذين كانوا يرعون العلماء ويحتضنونهم ويشهرونهم عند العامة والخاصة، وهذه الأسباب كلها أدت إلى عدم وجود ترجمة كافية وواافية له، ومن المعروف أنه لم يسع بقدمه إلى الملك الظاهر غازي وإنما الملك هو الذي سعى إليه وقربه منه.

شيوخه وتلامذته ومؤلفاته

بدأ السهروردي تحصيله الدراسي العلمي باتصاله بأستاذه مجد الدين الجيلي في مراغة (أذربيجان)، وهو فقيه أصولي متخصص بعلم الكلام الذي أفاد منه السهروردي في مناظراته، فلازمه فترة ويدرك ابن خلكان في وفياته أنه تلقى منه أيضاً علوم الحكمة والأصول والفقه حتى برع فيها، ومجد الدين هذا هو شيخ فخر الدين الرازي وعليه تخرج وبصحبته انتفع وقد جرت بينه وبين فخر الدين مناظرات ومساجلات، وبعد ارتحاله إلى أصفهان أتم دراسته على يد ظهير الدين القادری الفارسي حيث قرأ البصائر النصيرية في المنطق لعمر بن سهلان الساوي على يد الظهير الفارسي، وفي أثناء تجواله في البلاد تعرف على فخر الدين الماردینی (ت ٥٩٤ هـ) وصار تلميذاً مخلصاً له، وكان الماردینی علامة وقته في العلوم الحكمية، جيد المعرفة بصناعة الطب، ويأخذ بمذهب المشائين الأرسطي.

أما تلامذته فمما لا شك فيه أن يكون لشخصية علمية كبيرة تلامذة ومریدون ولكن المراجع لا تذكر إلا شمس الدين محمود

ابن محمد الشهري صاحب نزهة الأرواح وروضة الأفراح،
الذي شرح رسالة الغربة الغربية للشهري، ووضع مقدمةً
لكتابه حكمة الإشراق وبعض الحواشي عليه .

إن سعة إطلاعه وذكائه الفائق ولدت الرغبة لديه بالتوافق بين الفلسفات والفلسفه المختلفين، فالفلسفه عنده رجال أسرة واحدة وإن انتسبوا إلى شعوب مختلفة، وكلهم ينضوون تحت لواء فلسفة واحدة هي الفلسفه الإشرافية التي أسسها الأول: «أن الله نور الأنوار ومصدر جميع الكائنات وهو عماد العالم المادي والروحي».

❖ ❖ ❖

معظم مؤلفاته إن لم نقل كلها في الحكمة الإشرافية. وقد ترك حوالي خمسين كتاباً ورسالة باللغتين العربية والفارسية، وهي تؤكد أنه كان واحداً من النماذج البارزة لمفكري الحضارة الإسلامية الذين لم يتحددوا بإطار لغة أو إقليم.

«وهذه الوحدة الحضارية في التراث تؤكد حقيقة لا ريب فيها هي أن العالم الإسلامي بكل قومياته ينتمي إلى جذور حضارية واحدة رغم كل الفوائل السياسية واللغوية والقومية .

وإذا كانت استعادة الوجود تتطلب الارتباط بالجذور، فلا بد من تضافر الجهود بين كل المثقفين والعلماء والمفكرين في دائرة حضارتنا الإسلامية.

التجزئة الإقليمية والقومية في أعمالنا الحضارية تؤدي إلى بعثرة هذه الأعمال وإضعافها، إضافة إلى أنها تبتعد عن الموضوعية وواقع هذه الحضارة، بل وفي ظروف سيئة مررت على أمتنا اتجه كثير من الدراسات - مع الأسف - إلى نوع من التحامل والتشكك والاتهام في دراستنا الحضارية. وما ذاك إلا بسبب انعدام الإطار الذي يجمع كل الدارسين والباحثين في دائرتنا الحضارية الواحدة»^(١).

لقد ترك السهروردي ٩ كتاباً ورسالة باللغتين العربية والفارسية كما ذكر تلميذه الشهريزوري ونذكر منها ما يلي:

- حكمة الإشراق أو الحكمة الإشرافية: ولها شروح كثيرة مثل شرح السهروردي وقطب الدين الشيرازي وتعليقات صدر الدين الشيرازي وشمس الدين الشيرازي . ويضم أسس فكره وفلسفته، ويشتمل على قسمين في المنطق وفي الإلهيات. وتتلخص مدرسته الفلسفية التي سميت بالمدرسة الإشرافية بأن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الحقائق والمعارف بالبحث النظري وحده، بل لا بد أن يصاحب البحث النظري تأمل روحى ليصل إلى حقائق العلم وتنفجر في قلبه أنوار المعرفة. بعبارة

(١) من مقال للدكتور محمد علي آذر شب.

أخرى طريق العلم بحاجة إلى حركة في الفكر وحركة في النفس
كي يصل بها الإنسان إلى حقائق الأشياء .

- الألواح العمادية .

- التقىحات: في أصول فقه الشافعية، مما يؤكد أنه كان
شافعي المذهب .

- التلويحات الوحية والعرشية: شرحه الشهير زوري .

- المطارحات: وذكرها بعضهم باسم المشارع والمطارحات

- المقاومات: ذيل ولوائح للتلويحات والألواح .

- هياكل النور .

- المعراج .

- قصة (رسالة) الغربة الغربية .

- أصوات أجنحة جبرائيل .

- رسائل وأدعية فيها تمجيد وتقديس الله تعالى، وهذه الأدعية
جعلها على شكل مناجيات وبارقات إلهية وابتهالات نورانية،
تحتوي على توحيد ومناجاة خالصة لله تعالى بعبارة نورانية
شفافة وابتهالات راقية بدعة، وهناك مجموعة نصوص لم تنشر
منها:

- اللمحات في الحقائق

- المناجاة .
 - مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم .
 - التعرف للتصوف .
 - الأسماء الإدريسيّة .
 - الأربعون اسمًا .
 - يرتونامه: بالفارسية .
 - ترجمة رسائل الطير .
 - بستان القلوب: بالفارسية .
 - صفير سيمرغ : بالفارسية .
 - الكلمات الذوقية .
 - لغات موران (النمل) :بالفارسية .
 - مؤنس العشاق .
 - بقايا تلخيص إشارات ابن سينا .
 - كشف الغطا لأخوان الصفا .
 - الواردات والتقديسات (تقديسات الشيخ الشهيد).
 - تحفة الأحباب.
- ويذكر الشهربوري مؤلفات أخرى وهي:

- الرمز الموحي.
- المبدأ والمعاد: بالفارسية.
- البارقات الإلهية والنغمات السماوية.
- لوامع الأنوار.
- طوارق الأنوار.
- البارقات الإلهية.
- النفحات السماوية الإلهية.
- الرقيم القدسي.
- اعتقاد الحكماء.
- رسالة (در حالة طفولية): بالفارسية.
- رسالة المعراج.
- رسالة روزي باجماعت: بالفارسية.
- رسالة عقل سرخ: بالفارسية.
- رسالة أوازبر: بالفارسية.
- رسالة يزدان شناخت: بالفارسية.
- رسالة الطير.
- رسالة تفسير آيات من كتاب الله.

- رسالة غاية المبتدئ.
- التسبيحات.
- دعوات الكواكب.
- تخيرات الكواكب.
- مكاتبات إلى الملوك والشيوخ .
- كتاب الحكمة.
- الألواح الفارسية.
- تسبيحات العقول.
- الهياكل الفارسية.
- أدعية متفرقة.
- الدعوة الشمسية .
- الواردات الإلهية.
- كتاب التعليقات.
- كتاب المنافيات.
- شرح الإشارات: بالفارسية.
- كتاب الصبر.
- كتاب المقاومات.

- كتاب العشاق^(١).

ومن يعد إلى كتبه التي تحمل آراءه وحكمته وفلسفته يجد أنَّ أهم خصيصة لفكر السهوروبي هي الانفتاح على المؤلفات الغربية اليونانية، حتى عُدَّت مدرسته أعظم منظومة فكرية جمعت الشرق والغرب فكريًاً وحضارياً.

وانفتاحه على الفكر الغربي كان انفتاحاً فاعلاً لا منفعلاً، فقد تبنَّى المنطق الصوري الأرسطي، لكنه لم يكن اتباعه اتباعاً أعمى فقد كان له أيضاً ناقداً ومكملاً، فقد أنزل المقولات العشر لمنطق أرسطو إلى أربع، ثم جعل من المنطق الصوري سلماً صاعداً إلى عالم الإشراق. ونقدُّه هذا له أهمية كبيرة في تاريخ المنطق، كما أنه ربط المنطق الصوري عند أرسطو بعالم الإشراق في منظومة فكرية واحدة منسجمة يُعدَّ من أروع أعمال السهوروبي الفكرية.

يقول الدكتور إبراهيم مذكور في حديثه عن السهوروبي: «حقاً إنَّه كان موسوعي النزعة لا يقنع بكتاب ولا يقف عند شيخ، ويأبى إلا أن يضم الحكماء بعضهم إلى بعض، سواء

(١) أصول الفلسفة الإشرافية عند شهاب الدين السهوروبي: الدكتور محمد علي أبو ريان، ط٢، دار الطلبة العرب بيروت، وترجمة السهوروبي لشمس الدين محمود بن محمد الشهريزيوري في مقدمته لهيكل النور.

أكانوا شرقين أم غربين. وكأنما كان يطبق المبدأ القائل: الحكمة ضالة المؤمن يلتمسها أنى وجدها. وهكذا كان يجمع ما بين حكماء الفرس واليونان، وبين كهنة مصر وبراهمة الهند. ويأخي بين أفلاطون وزرادشت، وبين فيثاغورس وهرمس، بمعنى أنه شاء أن يضم الروحانيين بعضهم إلى بعض دون تفرقة بين جنس ووطن وتلك نزعة صوفية مألوفة. لا تفرق بين دين ودين أو بين جنس وآخر».

لقد شهدت حضارة اليونان أيام أرسطو انفصال الفلسفة عن الدين، خلافاً للحضارات القديمة الأخرى كالصينية واليابانية والهندية والإيرانية. ومع عصر الترجمة أيام الدولة الإسلامية في العصر العباسي كان التأثر بالفكر اليوناني وهكذا حدث منذ بدايات هذه النهضة نوع من الانفصال بين أصحاب العقل (الفلسفه) وأصحاب الذوق (العرفانيين والمتصوفة). وقد خلق هذا الانفصال اتجاهين في الفكر: أحدهما يركز على العقل باعتباره مصدر كل معرفة، والآخر على الإلهي باعتبار «الله» مصدر كل أنوار الحقائق.

ولكن القرنين الخامس والسادس شهدا محاولات تقريب المنهجين على يد ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين، ثم

استطاع السهوروبي أن يوحد بين المنهجين في منظومته الفكرية المسماة بحكمة الإشراق.

اهتم الأوروبيون بدراسة السهوروبي والتحقيق في حياته وفلسفته أكثر من العرب وأكثر من الإيرانيين أنفسهم. ومن هؤلاء (بروكلمان) في كتابه «تاريخ الأدب العربي»، فقد تقصى النسخ الموجودة من مؤلفات السهوروبي بالمكتبات العالمية. ومنهم أيضاً (ريتر) الذي قضى سنوات طويلة في اسطنبول يبحث عن السهوروبي، و(ماسينيون) الذي تناول حياة السهوروبي العلمية، وحاول أن يحيط بالتطور الفكري في منظومة هذا العالم في كتابه «تاريخ التصوف».

ويأتي (هنري كوربان) على رأس المستشرقين الذين اهتموا بالسهوروبي فقد قضى عمره كله في دراسة فلسفه الإشراق وشيخها السهوروبي. وإذا كان ماسينيون قد اختص بالحاج وكرس حياته لتقديمه ودراسة آثاره، فإن كوربان اختص بالسهوروبي وأنفق حياته في دراسته.

إن مؤلفات السهوروبي وحياته ورحلاته تؤكد وحدة الحضارة الإسلامية، فهو إيراني المنشأ ولغته الأصلية فارسية، لكن فكره ينتمي إلى الحضارة الإسلامية، لا إلى بلد ولا إلى لغة. ومثله أيضاً الفارابي وابن سينا والغزالى وابن المقفع

والنسيمي والطوسي وغيرهم كثير... ومثل هذا الفكر لا يمكن أن يحصر في إطار قومي أو إقليمي، إنهم أبناء دائرة ثقافية واحدة تحمل في نتاجها الفكري والإبداعي التعدد والخصوصية أيضاً، وهم أبناء منظومة فكرية تحاور وتفاعل فيها علماء هذه الدائرة من شرق العالم الإسلامي إلى غربه، واختار الجميع اللغة العربية باعتبارها لغة العلم آنذاك، بالرغم من أنهم كتبوا إبداعات خالدة بلغاتهم، وإذا كان بعضهم كتب بالفارسية أو بالتركية أو غيرهما من لغات عالمنا الإسلامي، فإن العربية كانت هي الجامع اللغوي والثقافي بينهم.

ولم يكن المسافر يحتاج إلى جواز سفر لينتقل من دولة إلى أخرى في العالم الإسلامي برغم من كل الفواصل السياسية واللغوية والقومية، وكان العلماء أو طلاب العلم يقطعون المسافات الشاسعة من أوطانهم إلى المراكز الثقافية الشهيرة آنذاك مثل بغداد ومراغة ودمشق وحلب والقاهرة وغيرها ليأخذوا العلم عن أساطينه أو يشاركون في الحركة الثقافية، وكانت دائماً يتم استقبالهم من القائمين على أوقاف دور العلم وتأمين إقامتهم ومعيشتهم ليترفّعوا لما جاؤوا من أجله، وما يجمعهم ويسهل أمرهم أنهم أبناء حضارة واحدة.

قبر خارج السور

أمام برج الثعابين في حلب والمكتشف حديثاً في حفريات باب الفرج، وخارج سور المدينة القديم يقوم جامع صغير سمي باسم السهوروبي ويضم ضريحه الذي يقع في الجهة الغربية من المسجد، وقد وسعت قبليّة المسجد حديثاً وأجريت عليها بعض التحسينات، ومع ذلك فإنها تضيق بالمصلين الذين يؤمّونه لصلاة الجمعة فينتشرون خارجاً وتملاً صفوّهم الزفاف الواقع بين المسجد وسوق بوابة القصب في حي الجديدة.

يقول الشيخ راغب الطباخ في كتابه إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: «إنه كان لمسجد السهوروبي صحن متسع خرب، وفي سنة ١٣٢٨هـ وضع دائره المعارف يدها عليه واعتبرته من الأوقاف المندرسة، وعمّرت الصحن مع جانب من المسجد طابقين، وأجرتها إلى دائرة البرق والبريد، ثم يقول: وقبّر السهوروبي درس وهو أمام باب الدائرة المذكورة (ويقوم مكانها الآن مركز للشرطة) بينه وبين الباب خمسة أذرع، واتخذ

له قبر آخر ضمن ما أبقي من المسجد تغطية وتعلمية كي لا يقال
إنهم درسوا القبر»^(١).

وضريح السهوردي الحالى متواضع، مهمل، ملاصق لجدار القبلية، علقت عليه مؤخرًا لوحة تعرف باسمه، ومن الواضح أن جدار القبلية الذى يفصل المسجد عن مخفر الشرطة حالياً لم يكن موجوداً في الأصل، وإنما أنشئ بعد اقطاع هذا الجزء من المسجد ومن الأفضل ضمه إليه، وسواء أكان الضريح في موقعه الحالى أو على بعد عدة أمتار منه فإن هذا المكان هو مدفنه، ولا بد من العناية به ليكون لائقاً بواحد من أعلام الفلسفه والتصوف والفكر الإنساني، ومؤسس الحكمة الإشراقية.

يقول الشاعر الحلبي الشيخ محمد أبو الوفا الرفاعي في منظومته (١١٧٩ - ١٢٦٤ هـ = ١٧٥٦ - ١٨٤٥ م) محدداً قبره: **والسهوردي الصغير يحيى وحوله أتباعه في الدنيا** و**و قبره بالقرب من باب الفرج إلى الشمال ليس فيه من عوج**^(٢) يقول ابن أبي أصيبيعة : حدثني بعض أهالي حلب قال: لما توفي شهاب الدين - رحمه الله - ودفن بظاهر مدينة حلب وجد مكتوباً على قبره.

(١) الطباخ. إعلام النبلاء ، ج ٤، ص ٣٠٣ .

(٢) أولياء حلب في منظومة الشيخ وفاء. تحقيق الأب فردینان توتنل، المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٤١

قد كان صاحبُ هذا القبر جوهرةً
 مكنونةً قد براها الله من شرفِ
 فلم تكن تعرف الأيام قيمته
 فردها غيره منه إلى الصدف^(١)

لم يدفن السهوروبي في مقابر المسلمين لاعتقاد خصومه
 الذين أفتوا بدمه أنه قد كفر، وقد دفن خارج المدينة في ظاهر
 السور، غير أن العامة من أهالي حلب قد ردوا إليه الاعتبار
 وأنشأوا حول ضريحه مسجداً واعتبروه ولیاً من أولياء الله
 تعالى. لقد ذهب الذين حكموا عليه ظلماً فلم يذكرهم التاريخ
 وبقي هو واحداً من أهم أعلام الفكر الإسلامي والعالمي.

(١) الطباخ. إعلام النبلاء ، ج٤، ص٢٩٧.

السهروري في الوجدان الشعبي

يزور العامة بحلب ضريح السهروري ويتركون به، وأغلبهم لا يعرف عنه شيئاً ويسمونه السليوردي أو السالي وردي محرفة عن السهروري، ويطلق على الإنسان النحيل، الضعيف القوة الجسمانية، المفك الأوصال، ومن تشبيهات الحلبيين (مثل عبد السليوردي، منين ما كمشتو بطلع بآيدك) يعتقدون أن من كراماته وأمره العجيب أنه من أي مكان أمسكته من أعضاء جسمه انفصل هذا العضو عن جسمه وصار في يدك، ويعود هذا التشبيه إلى قصة السهروري مع راعي الأغنام وسنأتي على ذكرها.

تسأل المسنين من العامة عن السهروري فيقولون: إنه واحد من أربعة جمعوا علوم الأرض وكشفت لهم الحجب، وهم: الحلاج والنسيمي والسهروري والسلامخ^(١)، ظهرت لهم قبة

(١) الحلاج هو حسين بن منصور، صوفي مقتول (٣٠٩ - ٢٦٧ هـ). النسيمي عماد الدين، حروفي مقتول (٨٢٠ - ٧٧ هـ). السلامخ قبره في حي الكلاسة بحلب ولم نعثر له على ترجمة.

دانيال فدخلوها وأغلقت عليهم فقرؤوا ما على جدرانها من علوم ومعارف وغيبيات وأسرار مكتوبة على جدرانها، ولما ظهرت وفتحت في العام التالي خرجوا بما لم يؤته أحد من علم.

ويزعم العامة أن أخلاق الناس يتجمرون في انتظار القبة - المزعومة - وهم يحملون قطع الطين في أيديهم، فإذا ظهرت سارعوا إلى لصق الطين على جدرانها ثم انتزاعه ليقرؤوا ما انطبق عليه من كتابات، ثم يهربون إلى الخروج منها قبل أن تتغلق عليهم.

ويروي المسعودي في كتابه مروج الذهب أسطورة شعبية شبّهه بأسطورة قبة دانيال، وذلك لأنَّ في بلاد الصين هيكلًا عظيماً فيه بئر، ما أكب عليها إنسان إلا هو فيها، ومكتوب عليها بالخط المسند: «هذه بئر تؤدي إلى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا وعلوم السماء، وما كان فيما مضى من الدهر، وما يكون فيما يأتي معه، لا يعمل إلى الوصول إليها والاقتباس منها إلا من وازت قدرته قادرتنا، أو اتصل علمه بعلمنا، وصارت حكمته كحكمتنا».

قبة دانيال في الاعتقاد الشعبي حقيقة مادية، وهي في رمزيتها ودلالتها رمز لتحصيل العلوم والمعارف عن طريق العرفان والكشف النوراني والعلم الاستسرازي، ومنهم من يقول

إنَّ القبة في المغرب، ومنهم من يقول إنَّها في المشرق، ومن غريب الأمور أن التصور الشعبي لا يحفل بالتحقيق الزمني فقد جمعوا بين الأربعة وهم من عهود مختلفة، وقالوا إنَّهم خرجوا من القبة بعلوم لدنِّيَّة ما أوتتها أحد، فهم علماء الحقيقة، وراحوا يتكلمون بما لا يدركه البشر، ويجادلون العلماء والفقهاء، وهم علماء الرسوم فيظهورون عليهم، فشكاهم الناس إلى السلطان، فدعاهم إلى قصره وجادلهم أهل العلم واتهموهم بالزندقة فحكم عليهم السلطان بالموت، فاستأذنوه بالاغتسال والوضوء ليصلوا ركعتين قبل الموت، فأذن لهم، وكان في باحة القصر بركة كبيرة فألقوا أنفسهم فيها، وانتظر الناس خروجهم لكنهم غابوا عن الأنظار، وبعد مدة ظهر ثلاثة منهم في حلب وهم السهوروسي، والنسيمي وضريحة أمام قلعة حلب بجانب حمام السلطان، والسلام، وقد زال ضريحة في الكلاسة مع فتح الجادة، أما الحاج فقد ظهر في بغداد، وعادوا إلى ما كانوا عليه من التكلم في العلوم اللدنِّية، والبُووح بالأسرار الصوفية فحكم عليهم بالموت، وانتهت حياة الأربعة نهاية مأساوية، فقد قتل الحاج وصلب في بغداد، وقتل السهوروسي صبراً في قلعة حلب، وسلم جلد النسيمي في حلب حتى الموت وقطعت أعضاؤه وزُرعت على بعض مؤيديه.

العامة إذن بحسها التاريخي الشعبي والفطري لا تدين ولا تكفر، لأنها بعيدة عن الخصومات والنزاعات التي تقع بين أفراد السلطة السياسية والدينية، وقد رأينا ابن شداد يقول إنه وجد علماء حلب مختلفين في أمر السهروردي، كما وجدنا العز بن عبد السلام وهو الإمام المجاهد المشهور الذي كان له الفضل الأكبر في تجيش الجيوش في معركة عين جالوت يدافع عن الحلاج ويؤوّل قوله الذي قتل به تأويلاً حسناً ليس على الظاهر وإنما على الرمز وفك وتفهُّم المصطلحات الصوفية.

السهروردي في حلب

يقول الشهريوري في مقدمة كتاب هياكل النور: " وكان رحمه الله في غاية التجريد، نهاية في رفض الدنيا، يحب المقام بديار بكر، وفي بعض الأوقات بالشام، وفي بعضها في الروم" ويبعدو أنه اتجه من أرض الروم ووصل إلى حلب سنة ٥٧٩هـ وهو ينشد:

لَا يَمْنَعُكَ خَفْضُ الْعِيشِ فِي دُعَةٍ
مِّنْ أَنْ تَبَدَّلْ أُوطَانًاً بِأُوطَانٍ
تَلَقَى بِكُلِّ بَلَادٍ إِنْ حَلَّتْ بِهَا
أَهْلًا بِأَهْلٍ وَخَلَّاً بِخَلَانَ

فهل كانت حلب وأهل حلب كما ارتجى الشاعر والفيلسوف الإشراقي وبخاصة أنه كتب فيها معظم مؤلفاته؟

اتجه السهروردي إثر دخوله حلب واستقراره في أحد نزلها إلى المدرسة الحلوية وتقع مقابل الباب الغربي للجامع الأموي الكبير، في سوق الحدادين، وقد كانت الكاتدرائية العظمى

للمسيحيين قبل أن يحولها القاضي ابن الخشاب إلى مدرسة ومسجد إثر حصار الصليبيين للمدينة. دخل المدرسة في خطوات ثابتة وهو لا يلبس دلّقاً^(١) ومجرد بيريق وعكار خشب، وبهذا المظهر المتواضع قابل فقهاء حلب وهم يلبسون فاخر الثياب، وجلس في ركن منهم، ولما بدأ الحوار في مسائل العلم اشتراك فيه، فلفت نظر مدير المدرسة افتخار الدين قاضي الحنفية وعرف أنه إمام عالم فقيه بالرغم من هيئته الزرية، وعندما انصرف بعد انتهاء الجلسة دعا افتخار الدين ولده وأعطاه ثوباً عنايبياً وغلاله وبقياراً^(٢)، وقال له: خذها إلى الشيخ الغريب ليلبسها إذا حضر مجلسنا غداً، ودخل الفتى على الشيخ وأعطاه إياها قائلاً لقد أرسلها لك والدي لتلبسها في مجلس العلماء.

قال الشيخ السهوردي للفتى: ضع هذا القماش يا ولدي واقض لي حاجة. وأعطاه فص بلخش رماني بحجم بيضة الدجاجة ما ملك أحد مثله في حجمه ولو نه وقال له: خذه إلى السوق ونادِ عليه، ومهما أعطيتَ من ثمن لا تبعه قبل أن تراجعني. وذهب الفتى إلى عريف السوق ونادى عليه فبلغ ثمنه

(١) الدلق: جبة يلبسها الصوفيون، فارسية

(٢) البقيار: ضرب من العمام الكبيرة يعتمرها الوزراء والكتاب والقضاة. فارسية.

خمسة وعشرين ألف درهم، لكن الفتى اعتذر عن إتمام البيع حتى يراجع صاحبه وأخذه ومضى إلى الشيخ ليطلعه على الثمن. أخذ السهوروبي فص البلخش وضربه بحجر كبير حتى فتّته ونثره في الأرض، والفتى يعجب من فعله، قال السهوروبي: خذ يا ولدي هذه الثياب إلى والدك وقل له : لو أردنا الملبوس ما غلّبنا عليه! وسنأتي على تفسير هذه الحادثة فيما بعد.

هذه الحادثة تدل على أن فقهاء حلب كانوا يلبسون فاخر الثياب المميزة ليرتفع شأنهم وهبّتهم أمام العامة وأمام مريديهم، ويحظون بصلات الملك، بينما كان السهوروبي يلبس خرقة المتصوفة، والملابس المتواضعة، ويحمل إبريق الماء معه، غير مهمّ بمظهره، ويكتفي في الطعام بما يسد الرمق، معتبراً أن جلال المرء بعقله وأفكاره وليس بملبسه ومظهره.

انتهى خبر الحجر الكريم إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي ملك حلب فدعا افتخار الدين وطلبه منه ليشتريه ظاناً أنه له، فقال: إنه ليس لي وإنما لرجل فقير نازل عندي، تفكّر الملك وقال: يا افتخار الدين إن صدق ظني، فهذا شهاب الدين السهوروبي.

هذه الحادثة تدل على أن شهرة السهوروبي عند الخاصة كانت قد عمت البلاد وأنها كانت تسبقه إلى أي بلد نزل فيه، وقد بقي السهوروبي في حلب تسع سنوات حتى مقتله عام ٥٨٧ هـ يتردد خلالها إلى دمشق ومدن الشام والأناضول ثم يعود إلى حلب.

قرب الملك الظاهر غازي السهوروبي إليه، وأكرمه واصطفاه واصطحبه إلى قلعة حلب من دون الباقيين، فأثار بذلك حسد العلماء ونقمتهم، وزاد في ذلك دخوله في مناظرات معهم وظهوره عليهم، فتعصبوا عليه وأفتووا في دمه متهمين إياه بانحلال العقيدة والتعطيل واعتقاده مذهب الحكماء المتقدمين، وكان أشد الجماعة عليه الشیخان زین الدین ومجد الدین من أبناء جهبل.

وأما العمام الأصفهاني فإنه يورد القصة الكاملة لمقتله فيقول: «سنة ٥٨٨ هـ : وفيها قتل الفقيه شهاب الدين السهوروبي الإشراقي وتلميذه شمس الدين - يعني الشهزوري - بقلعة حلب^(١)، وكان فقهاء حلب قد تعصبوا عليه ما خلا الفقيهين ابني

(١) يتفرد الأصفهاني بهذه الرواية والأصح أن السهوروبي قتل وحده وأن تلميذه هو الذي اهتم بمؤلفات أستاذه بعد استشهاده.

جهبل، فإنهما قالا : هذا رجل فقيه ومناظرته في القلعة ليست بحسن، ينزل إلى الجامع ويجتمع الفقهاء كلهم ويعقد له مجلس في الخلاف ما ترجح لهم عليه بحججه.

أما روایة الصفدي فتذكر أنَّ من أفتى بقتله هما الشیخان زین الدین ومجد الدین ابنا جهبل، ونحن نرجح هذه الروایة.

كان السهروردي شافعی المذهب، وله رسالة في الشافعیة، يلقب بالمؤید بالملکوت، وقد اختلف الناس في أمره بعد موته فمنهم من يعتقد فيه الصلاح، وأنه من أهل الكرامات، ومنهم من يعتقد غير ذلك، وقد أدانه خصومه بقوله : « إن الله قادر أن يخلق نبياً » ولم يشأوا التمييز بين ممکن في حد ذاته وممکن لم يقع، والسهروردي يرى استمرار النبوة بمعنى حق الحكم التشريع في الإمام، لكن خصومه أوّلوا ذلك بأنه يرى إمكانية وضرورة استمرار بعث الأنبياء لحفظ نظام الكون، ومهما يكن فإن خصوم السهروردي قد أتوا في إقناع الملك باتهاماتهم فاستدعاهم وعقد له مجلساً من الفقهاء والمتكلمين يباحثونه ويناظرونها، فإذا هو يَظْهُرُ عليهم ويُظْهُرُ فضله وعلمه وقوته حججه أمام الملك، فلم يكن من الملك إلا أن زاد إقباله عليه وإكباره له وإعجابه به فاشتد ضيق الفقهاء، فكتبوا إلى صلاح الدين نفسه فكتب إليه أبوه بإبعاده فلم يبعده، فكتب إليه

بمناظرته، فظهر السهوروبي على العلماء، فكتبوا إلى صلاح الدين ثانية يحذرونه من خطر السهوروبي على عقائد الناس والدولة التي تقف على حواط الخطر، وقد عملوا محاضر بکفره وسيّرواها إلى دمشق كاتبين للملك الناصر صلاح الدين: «إن بقي هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر، وإن أطلق فإنه يفسد أي ناحية كان بها في البلاد». فاستجاب صلاح الدين وأرسل إلى ولده الظاهر بحلب كتاباً بخط القاضي الفاضل يقول فيه: «إن هذا الشاب السهوروبي لا بد من قتله، ولا سبيل أنه يُطلق، ولا يبقى بوجه من الوجوه». ولما تلّكَ ابنه في تنفيذ الأمر هدده بخلعه من ولاية حلب.

وكان من جملة ما دار في المنازرة بين الفقهاء والسهوروبي ما يلي:

الفقهاء: أنت قلت في تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبياً. وهذا مستحيل.

السهوروبي: ما حدّاً لقدرته؟! أليس القادر إذا أراد شيئاً لا يمتنع عليه؟

الفقهاء: بلـ.

السهوروبي: فالله قادر على كل شيء.

الفقهاء : إلا على خلقنبي فإنه مستحيل.

السهروردي: فهل يستحيل مطلقاً أم لا؟!

الفقهاء: كفرت!

وهكذا اتهم السهروردي بالكفر والإلحاد والزندة ظلماً وجهاً
وكيداً فأعدم وهو منها براء.

وفد ملك العجب المؤرخين والمفكرين مما أقدم عليه صلاح الدين الأيوبي، الذي كان معروفاً باعتداله وتسامحه إلى حد مصالحته لفرقة الحشاشين التي كان علماء السنة يرون في أفكارها الزندة بعينها.

ويفسر بروكلمان الأمر بقوله: «الواقع أن صلاح الدين لم يستشعر الحاجة إلى إقامة ديوان لامتحان الزنادقة إلا مرة في حلب كانت مع السهروردي، وكانت له آراء غنوصية... ما لبثت أن أثارت شكوك علماء السنة، فزعموا أنه يمثل عقيدة القرامطة المعادين للدولة. وهذا لم يكن في وسع صلاح الدين، رغم اعتداله، إلا أن وافق على حكم الموت الذي أصدره الفقهاء القضاة عليه عام ١١٩١ م»، وكان السلطان يعيش مهنة حصار الملك الإنكليزي ريكاردوس قلب الأسد لعكا، الحصار الذي استمر سنتين (من ١١٨٩ إلى أواخر ١١٩١)، حيث انتهى

باستيلاء الصليبيين عليها، يقول بهاء الدين، كاتب السلطان: «كان الفرنج يهلكون، والناس في معسكرنا أصيروا بالخبار؛ فالجنود ي يكون وينتحبون، والسلطان كالأم الثكلى. وذهبت لرؤيته جاهداً في إدخال العزاء على قلبه، وقلت له إنه ينبغي بعد الآن أن يهتم لمصير أسرى المسلمين في عكا».

وهكذا انتقل من كارثة عسكرية إلى كارثة إنسانية. فالمفاوضات لإطلاق جنود الحامية مقابل فدية لم تصل إلى نتيجة. وبعد وقت لا ندري تحديده يصل إلى صلاح الدين خبر إبادة الأسرى:

«فجمع ألفان وسبعين جندي من حامية عكا عند الأسوار، ومعهم ثلاثة امرأة وطفل من أسرهم، وربطوا بالحبال، فلا يؤلفون إلا كتلة بشرية واحدة، وقدموا إلى المقاتلين الفرنج الذين انهالوا عليهم بسيوفهم ورمادهم وحتى بالحجارة، إلى أن لم تعد تسمع أية آهة».

في هذه الظروف الصعبة ما كان لصلاح الدين أن يحقق بروية في قضية السهوردي، وهو المعروف بتسامحه وعدله حتى مع أعدائه.



حبس السهوروبي في سجن قلعة حلب وقيل إنَّ الملك أرسل إليه من خنقه بوتر، وقيل بل رمي من أعلى القلعة، وقيل ضرب بسيف، والأصح أنه طَلَبَ من الملك أن يسجن في القلعة ويمنع عنه الطعام والشراب حتى يموت صبراً، جوعاً وعطشاً، وهكذا كان، ومهما يكن فقد توفي شاباً عام ١٩١٥هـ - ١٩٩٦م عن عمر لم يتجاوز الثامنة والثلاثين.

ونقل سبط ابن الجوزي في تاريخه عن ابن شداد أنه قال: «لما كان يوم الجمعة بعد الصلاة سلخ ذي الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة أخرج الشهاب السهوروبي ميتاً من الحبس بحلب فتفرق عنه أصحابه».

ظل الملك غازي على حبه وإعجابه بالسهوروبي بعد وفاته، وذلك أنه بعد مدة ثأر له ونقم على الذين أفتوا في دمه فقبض على جماعة منهم وأهانهم واعتقلهم وأخذ منهم أموالاً عظيمة، وعد ذلك من كرامات الحكيم الشهيد بعد وفاته. ويذكر تلميذه الشهزوري أنه بلغه أن الشيخ مجد الدين الجيلي رأى رسول الله في المنام وهو يجمع عظام شهاب الدين و يجعلها في التقوبات، وقيل في كيس، ويقول هذه عظام شهاب الدين.

قيل إن السهوروبي لما تحقق القتل كان كثيراً ما ينشد:

أَرَى قَدْمِي أَرَاقَ دَمِي
وَهَانَ دَمِي، فَهَا نَدَمِي

وقد سُمع قبل موته وهو ينشد:

فِبِكُونِي إِذْ رَأَوْنِي حَزَنًا
لَيْسَ ذَا الْمَيْتَ وَاللهُ أَنَا
طَرِطُ عَنْهُ فَتَخَلَّى رَهْنَا
وَأَرَى اللَّهُ عِيَانًا بِهَنَا
دِهَا سَتَرُونَ الْحَقَّ حَقًا بَيْنَا
وَكَذَا الْأَجْسَامُ جَسْمٌ عَمَّنَا
وَاعْتَقَادِي أَنْكُمْ أَنْتُمْ أَنَا

قَلْ لِأَصْحَابِي رَأَوْنِي مِيتًا
لَا تَظْنُونِي بِأَنِّي مِيتٌ
أَنَا عَصْفُورٌ، وَهَذَا قَفْصِي
وَأَنَا الْيَوْمُ أَنْاجِي مَلَأً
فَاخْلُعُوا الْأَنْفُسَ عَنْ أَجْسَاسِي
عَنْصُرُ الْأَرْوَاحِ فِينَا وَاحِدٌ
مَا أَرَى نَفْسِي إِلَّا أَنْتُمْ

هذه القصيدة تجسد إبداعياً فكر الشاعر في الإشراق والمشاهدة، ويشرح حسين مروة فيقول: إن النور في فلسفة السهوروبي، من حيث هو مبدأ الوجود، هو مبدأ "الحقيقة" الصوفية الإشراقية التي هي هدف المعرفة. وتتشكل هذه الفلسفة من فعلي «الإشراق» و«المشاهدة»، اللذين يختلفان من حيث الاتجاه، ويتفقان من حيث الجوهر.

وكان السهوروبي إذا جنَّه الليل دعا ربَّه قائلاً:

«اللَّهُمَّ يَا قَيَّامَ الْوَجُودِ، فَائِضُ الْجُودِ، وَمَنْزُلُ الْبَرَكَاتِ، وَمَنْتَهِيُ الرَّغْبَاتِ، مُنْوِرُ النُّورِ، وَمَدِيرُ الْأُمُورِ، وَاهِبُ حَيَاةِ الْعَالَمِينَ»

امدنا بنورك، ووفقنا لمرضاتك، وألهمنا رشك، وطهرنا من رجس الظلمات، وخلصنا من غَسق الطبيعة إلى مشاهدة أنوارك، ومعاينة أصواتك، ومجاورة مقرّيك، وموافقة سكان ملكونك، واحشرنا مع الذين أنعمت عليهم من الملائكة والصديقين والأنبياء والمرسلين».

ومثل هذا الكلام لا ي قوله إلا مؤمن شديد الإيمان.

لا شك أن حياة السهوروبي ما كانت لتنتهي على هذا الشكل المأساوي لو لا أنَّ حلب كانت أحد معاقل الفكر الديني الملتزם بأصول الشريعة على نهج الظاهر وطريقة السلف بعد التحول المذهبى من التشيع السائد في العهدين المرداسي والحمداني إلى المذهب السنى في العهدين الزنكي والأيوبي، والذي بدأ مع السلاجقة وقد شهدت بسبب ذلك صراعات وفتاً وبخاصة في عهد الملك الصالح إسماعيل حتى اضطر شمس الدين محمد بن المقدم الوصي على الملك إلى استدعاء كمشتكين من الموصل عام ٥٧٠هـ. وكانت حلب تعيش في ظل حكم طوارئ عسكري بسبب ظروف الحرب مع الصليبيين، وتفاقم الخطر المغولي، بالإضافة إلى ازدياد نفوذ رجال الدين وتزمُّتهم، وخوف الحكام من الحركات الباطنية. كما إنَّ السهوروبي قد كان فيه حماس الشباب وتهوره في الإفصاح عن آرائه الدينية

والفلسفية، وفي الإدلال بمعرفته على زملائه العلماء والفقهاء مما أثار نقمتهم، وصراع المشايخ المسلمين بمريديهم وفتواهم شديدٌ دمويٌّ لا يرحم، هو أشدُّ عنفًا من صراع العسكر، فهم سرعان ما يفتون بالدم، وقد وجدنا مثيله عند علماء الدين المسيحي حين أقاموا محاكم التفتيش، وهذا الحكم لا ينطبق على العقلاء والمتقين وأهل الوعي من رجال الدين. كما إنَّ صلاح الدين نفسه على خلاف ابنه الشاب الظاهر كان رجلاً عسكرياً عملياً مبغضاً للفلسفة وأصحابها.

يقول ابن أبي أصيبيعة في كتابه طبقات الأطباء: « كان السهوروسي المذكور أوحدَ أهل زمانه في العلوم الحكيمية، جاماً للعلوم الفلسفية، بارعاً في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء، فصيح العبارة، وكان علمه أكثر من عقله». .

ويقول مؤرخ حلب الشيخ راغب الطباخ في كتابه إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء:

« إنَّ من تأمل في أدعية هذا الرجل، وكلامه هنا، وفي كتابه هياكل النور، ونظمه الذي أوردهنا، خصوصاً الأبيات التي أنسدتها عند مماته، يستدل على أنه كان رجلاً من أعاظم الرجال الذين سمت إلى العلياء نفوسهم، وزهدوا في هذه الحياة الفانية، وتقنوا أنها عرض، ووجهوا قلوبهم إلى الله تعالى، وأقبلوا

بكلِّيَّتِهِمْ إِلَى جنابِ قُدْسِهِ، وَالذِّي يَتَرَاءَى لَنَا مِنْ شِعْرِهِ أَنَّهُ شَعْرٌ
رَجُلٌ صَدِيقٌ لَا شَعْرَ رَجُلٌ زَنْدِيقٌ»^(١).

هكذا يرفع المؤرخ الحلبـي الفيلسوف الإشراقي إلى علـيين
وإلى مرتبة الصـدـيقـين.

يبـدو أنـ شـجـاعةـ السـهـورـديـ فيـ الإـعـرـابـ عنـ آرـائـهـ نـاجـمةـ
مـنـ عـدـمـ خـوـفـهـ مـنـ الـمـوـتـ لـإـيمـانـهـ العـمـيقـ بـأـنـ النـفـسـ تـصـبـوـ إـلـىـ
الـصـعـودـ إـلـىـ مـنـشـئـهـ، وـلـاـ يـكـونـ ذـكـ إـلـاـ بـتـخـفـهـاـ مـنـ أـنـقـالـهـ
الـمـادـيـةـ وـتـحـرـرـهـاـ مـنـ أـسـرـ الـجـسـدـ. يـقـولـ مـنـ قـصـيـدةـ أـنـشـأـهـاـ عـلـىـ
غـرـارـ عـيـنـيـةـ اـبـنـ سـيـنـاـ:

وصـبـتـ لـمـفـاـهـاـ الـقـدـيمـ تـشـوـقـاـ	خـلـعـتـ هـيـاـكـلـهـ بـجـرـعـاءـ الـحـمـىـ
رـبـعـ عـفـتـ أـطـلـاـهـ فـمـزـقـاـ	وـتـنـفـتـ نـحـوـ الـدـيـارـ فـشـاقـهـاـ
رـجـعـ الصـدـىـ أـنـ لـاسـبـيلـ إـلـىـ اللـقاـ	وـقـفـتـ تـسـائـلـهـ فـرـدـ جـوـابـهـاـ
ثـمـ انـطـوىـ، فـكـانـهـ مـاـ أـبـرـقـاـ	فـكـانـهـ بـرـقـ تـأـلـقـ بـالـحـمـىـ

(١) الطـبـاخـ. إـعـلـامـ النـبـلـاءـ جـ٤ـ صـ٣٠٤ـ.

مراتب الحكماء في حكمة الإشراق

يصنف السهوروبي في كتابه «حكمة الإشراق» مراتب الحكماء بحسب توفر شرطين هما:

١ - التأله أي أن يكون الله في قلبه، متدينًا متذوقاً منفكراً منقطعاً إلى الله عارفاً بالشريعة،

٢ - البحث وهو الثقافة العلمية الواسعة والمعرفة والاختصاص والعلم بالأمور الدنيوية وأصول الحكم والتشريع، قادر على التبصر والبحث والتطور. وهذه المراتب هي كما يلي:

١ - حكيم إلهي متوجّل في التأله عديم البحث، (وهو أكثر الأنبياء والأولياء من المتصوفة).

٢ - حكيم بحاث عديم التأله (وهو كالمشائين والفارابي وابن سينا).

٣ - حكيم إلهي متوجّل في التأله والبحث وهذا هو الحكيم الإشraqi الذي يجمع بين الحكمتين الذوقية والبحثية (كالسهوروبي).

٤ - حكيم إلهي متوجل في التأله متوسط البحث.

٥ - حكيم إلهي متوجل في التأله ضعيف في البحث.

٦ - حكيم إلهي متوجل في البحث متوسط في التأله.

٧ - حكيم إلهي متوجل في البحث ضعيف في التأله.

ويرى السهوروبي أن أرقى المراتب هي الثالثة، وصاحبها هو الإمام أو القطب، وهو الأجر بالحكم، ويعد نفسه وأصلاً إلى هذه المرتبة فهو الأجر بالقيادة الدينية والدنيوية، وقد ظهر ذلك في بعض شعره وأقواله. كقوله للأمدي : «لا بد أن أملك الأرض»، و قوله:

وبي أملْ أني أسود وكيف لا
وآل بويهِ بعد فقرهم سادوا
وأحکُم في أهل الزمان كما أشا
وأملك ما صانوا، وأهدم ما شادوا

مثل هذه الدعوى تعتبر خطراً على السلطات الحاكمة،
ولا سيما أنه كان للسهوروبي مریدون وأنصار واتصال
بسلاجقة الأناضول، مع أنه لم يصل إلى حدود الدعوة السياسية
لنفسه. وهذا يقودنا إلى نفي السبب الذي أورده المستشرقان فون
كريمر وهورتن لمقتله، وفيه يذهبان إلى أنه وضع مذهبه في
دائرة الإسماعيلية القائلة بأن أبناء علي كرم الله وجهه هم صور
للتجلي الإلهي معتمدين على نص للسهوروبي يقول فيه: «العالم

ما خلا قط من الحكمة ومن شخص قائم بها عنده الحجج والبيانات»، لكن الذي قاله السهروردي بعد أن صنف مراتب الحكماء هو ما يلي، وهو لا يؤيد دعوى كريمر وهورتن:

«إن اتفق في الوقت متوجلٌ في التأله والبحث فله الرياسة، وإن لم يتفق فالمتوجل في التأله المتوسط البحث، وإن لم يتفق فالمتوجل في التأله عديم البحث، وهو خليفة الله (أي الحكم)، ولا تخلو الأرض من متوجل في التأله أبداً؛ إذ لا بد للخلافة من النافي، وهذا الإمام الذي تتتوفر فيه هذه الصفات وهو الأحقُّ وقد يكون مستولياً (أي حاكماً فعلياً) فيكون الزمان نورياً، وقد يكون خفياً (أي مستتراً غير معروف) وهو ما يسميه المتصوفة باسم القطب». .

السهروردي إذن يتناول مسألة الإمامة تناولاً فلسفياً وعملياً، لا مذهبياً ولا طائفياً ولا قومياً، ولا يجعلها محصورة في أبناء علي (t).

أخبار محققة

أهي من السيماء أم الإشراقية التجريبية

حادثة أولى: يذكر ابن أبي أصيبيعة أنَّ شهاب الدين السهوروسي كان يعرف علم السيماء، وله نوادر في هذا الفن^(١) منها ما رواه الحكيم إبراهيم بن أبي الفضل بن صدقة أنَّه اجتمع به في ظاهر باب الفرج بدمشق، وكان يتمشى مع بعض تلامذته، فقال الشيخ السهوروسي: ما أحسن دمشق وهذه الموضع. فنظرلوا فرأوا أشجاراً وقصوراً ونساء فاتنات يطللن من النوافذ وأنهاراً جاريات. قال الحكيم إبراهيم وكان شاهداً للحادثة: "فبقينا نتعجب من ذلك وتسحسنه الجماعة وقد انذهلوا لما رأوا، فبقينا كذلك ساعة، ثم غاب كل ذلك وعدنا إلى رؤية ما كنا نعرفه من طول الزمان، إلا أنه عند رؤية تلك الحالة

(١) أخبار السهوروسي في كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبيعة ص ٦٤٣ - ٦٤١ دار مكتبة الأجيال. بيروت، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان . ص ٩٦ ط ١٩٧١ م.

الأولى العجيبة بقيت أحسُّ في نفسي كأنني في سنة خفيفه». وكلمة سنة قد تقرأ بفتح السين بمعنى زمن خفيف، وهذا ما نرجحه، أو بكسرها بمعنى غفوة قصيرة.

حادثة ثانية: ويروي ابن أبي أصيبيعة عن أحد فقهاء العجم حضر الحادثة، أنَّ الشيخ كان مع تلامذته فرأوا أن يشتروا شاة فنهض تلميذ للشيخ واشتري شاة من راع تركمانى بعشرة دراهم، ورأى التركمانى أنه قد بُخس حقه، فجاء يجادل الشيخ في ثمنها حتى غضب التركمانى وجذب الشيخ من يمناه فانخلعت وانفصلت عن جسده، ففرغ ورمها على الأرض نازفة وولى هارباً، فالنقطة الشيخ يده من الأرض وعاد إلى تلامذته فإذا به لا يحمل غير منديل أحمر! ومن ذلك جاء المثل الحلبي: «مثل عبد السالى وردي منين ما كمشتو بطلع في إيدك».

حادثة ثالثة: وهي مقرونة بعبارة «وزعم عليه أي على السهوردي» وذلك ما ذكره الشيخ أحمد الملا في مختصره لتاريخ الذهبي من أنَّ تلميذاً له قال له: قد كثر القول بأنك تقول: «النبوة مكتسبة» فاخرج بنا. فخرج إلى قرية دوير بن الخشّاب فأكل البطيخ الأحمر وتناول من حفرة فيها بعض الحصى ثم دهن بدهن معه وشدَّه إلى وسطه ووسط أصحابه أياماً ثم حلَّه

فإذا هو ياقوت أحمر باع منه ووهب، ولما قُتل وجد شيء منه في وسطه».

حوادث أخرى كحادثة فص البلخش مع مدير مدرسة الحلوية والتي أتينا على ذكرها.

❖ ❖ ❖

بم نفسر هذه الأحداث وببعضها محقق، وبخاصة حادثة دمشق؟

١ - يتساءل الأديب الحلبي صاحب مجلة الحديث في كتابه عن السهوردي: هل لجأ إلى التويم المغناطيسي أم إلى ظواهر الروح؟ ثم يقول: إنَّ العلم الحديث يقر اليوم «ظاهرة الجلاء البصري» وفيها يرى الوسيط صورة لشيء لا يراها غيره، وتكون الرؤية باستعمال حسٌّ هو فوق الحس الفيزيولوجي.

٢ - من المؤكد أنَّ ما قام به السهوردي لم يكن ضرباً من التويم المغناطيسي، ولكن ألا يمكن أن نردد إلى براعته في السيماء، وبخاصة أن ابن أبي أصيبيعة أورد هذه الحوادث في معرض حديثه عن علم السهوردي بالسماء، ونشر هنا أن لهذا العلم جانبيين:

الأول، مادي : وهو تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وهذا ما فشل به الأقدمون.

الثاني، روحي: وهو التحويل الروحي، أو الارتفاع بالروح من حالة «المدرَك العادي» إلى حالة أعلى هي «المدرَك فوق العادي»، وذلك انطلاقاً من أنَّ الروح جوهر وما عادها من غواصَ البَدْن والأشياء عَرَض، وأنَّ الفكر سابق «للصنع» ومنتجِه، وله الحقيقة، فالروح المتعالية تستطيع أن تدرك، وأن ترى، وأن تخلق بصرياً ما هو «فوق العادي» وتحول «العادي» إلى «ما فوق العادي» كما رأينا في حادثة البلخش، إذ تحمل المادة مؤثراً روحيَاً فيراها الرائي وإن كان بعيداً عن المؤثر الأصلي مادة أخرى بصفات مختلفة.

يدرك ابن خلدون في مقدمته^(١) أنَّ علم الحروف واستخراج المغيبات منها هو المعروف بالسيمياء، غير أنَّ حوادث السهوردي بعيدة عن هذا الجانب.

يقول الشهريزوري: «سمعت من علماء العامة، ومن لاحظَ لهم في العلوم الحقيقة يقول: إنه كان يعرف السيمياء، وبعضهم يزعم أنه متخيل، وكلُّ ذلك خرافات وجهل بمقامات أخوان

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٦ ط ١٩٧١ .

التجريدي، بل هو وصل إلى غاية مقاماتهم، ولأخوان التجريد مقام يقدرون فيه على إيجاد أيّ صورة أرادوا، وإلى هذا المقام وصل أبو يزيد البسطامي، والحسين بن منصور الحلاج وغيرهما من أخوان التجريد، وكنت مدة مؤمناً بهذا المقام حتى أعانتي الله تعالى باليقين التام، ولو لا أنه من الأسرار التي يجب كتمانها لذكرت من حاله شيئاً^(١).

١ - مع عدم استبعادنا للجوء السهوروبي إلى السيماء الروحية فإننا نرى أن ما قام به هو وضع فلسفته الإشرافية في مجال التجريب والتطبيق، ثمة تجربة روحية مثيرة في انسكاب الأنوار وتشعشعها قام بها على نفوس محيطة به استطاع الارتفاع المؤقت بها من عالم الغواص وال أجسام إلى عالم المثل المعلقة والتي يرى فيها الإنسان المرتفقي كل ما هو موجود في العالم الحسي من غنى وتنوع؛ وإنما في صورة أرقى وفي حالة لطيفة غير مادية وهذا ما يفسر قول الحكيم ابن أبي الفضل : «بقيت أحس في نفسي كأنني في سنة خفيفة» وسنأتي على ذكر هذه العالم في فلسفة السهوروبي.

٢ - إن التجريب الروحي أمر لم يعد من الممكن تجاهله، وله من الاعتبار في مجالاته ما للتجريب العلمي في مجالاته،

(١) الشهورزوري. مقدمة هيكل النور ص ٨ دار الهجرة ١٩٩٢.

والاتجاه الأمثل في البحث اليوم يسير إلى اعتبار أن العالم كُلّ لا يتجزأ، وأن ثمة عنصراً عاقلاً واعياً يقوم في الموجودات من الذرات إلى الأفلاك هو علّة الحركة الكلية الجوهرية في نهر الكون، وهذا ما عبر عنه الفلسفة الأوائل مثل أفلاطون، والإشراقيون والعرفانيون، بظهور الحق في الخلق، أو في شكل آخر كما عند ابن عربي بأن الموجودات هي تجليات الحق بأسمائه وصفاته لا بذاته.

٣ - يقول ابن عربي في فصوص الحكم (الفصل السادس) : «والعارف يخلق بالهمة ما يكون له وجود خارج محل الهمة، ولا تزال الهمة تحفظ، ولا يؤوده حفظه أي حفظ ما خلقه، فمتى طرأ على العارف غفلة عن حفظ ما خلق عدم ذلك المخلوق». فالعارف يستطيع أن يخلق أشياء، ليست من قبيل التوهم، بل يكون لها وجود في العالم الخارجي المحسوس، وأداته في الخلق هي «الهمة» وتعرف عند المتكلمين باسم «الإخلاص» وعند الصوفية باسم «الحضور» وعند العارفين باسم «الهمة»، وهي قوة غريبة «عنایة إلهیة» لا تعرف ماهيتها، يسلطها العارف في حال فنائه في الله على أي شيء يريد أن يكون فيكون، وبما أنَّ الفناء لا يكون في الذات وإنما في الأسماء والصفات (الأسماء = الأرباب عند ابن عربي) فعملية الخلق حقيقة تعود إلى الحق

"الله" وليس إلى العارف، وإنما يكون العارف وسيطاً في هذه العملية، (مثل إحياء عيسى (لـ) للموتى، فالإحياء يعود إلى الله وليس إلى عيسى فهو وسيط). غير أنَّ العارف لا بد في النهاية أن يغفل عما خلق - بالوساطة - فيعدم، أما الحق فلا يغفل فيبقى ما خلق، لكنه يورد طريقاً لحفظ الصور وذلك بتوالد (= خلق) الصور من بعضها، ويعطي هو أي العارف عناته للصورة الأولى فلا يغفل عنها فتحفظ بها جميع الصور.

سؤالان:

أ - هل قام ابن عربي بوضع هذه الأطروحة الخطيرة في مجال التجريب، وهو العارف، كما فعل السهوروبي في إشرافيته التجريبية، أم أنه خاف عوائق الأمور، علماً بأنه يعتز بهذا الكشف بقوله: «وهذه مسألة أخبرت ما سطرها أحد في كتاب لا أنا ولا غيري إلا في هذا الكتاب».

ب - ألا يمكن أن يتعاون ويتحاور التجريب الروحي الإشرافي والتجريب العلمي في الكشف عن تركيب العناصر المخلوقة بالهمة؛ لنصل إلى يقين كلي وروحي؟

طوالع الفلسفة الإشراقية

قبل أن نتحدث عن أهم قواعد الفلسفة الإشراقية التي أرسى السهوردي أسسها لا بد أن نشير إلى طوالعها فنعود إلى نقطتين.

- الأولى : هي ظهور طوالعها في نظرية المعرفة عند أفلاطون، وكانت فلسفته ذات بعدين متلازمين هما:

١ - البعد العرفاني الذي تمثله قوة الربوبية، وروح التائه، والاتصال بقدس الإلهية.

٢ - البعد العقلي الذي تمثله قوة الاستدلال العقلي.

نما البعد الأول واستمر في الأفلاطونية الحديثة وكان أفلوطين وفرفيروس وبركلس أبرز أعلامه وقد شكل أحد عناصر فلسفة الإشراق. ونما البعد الثاني واستمر عند أرسطو ومن خلفه من المشائين.

لم تعرف المشائية التي تعتمد على العقل والاستدلال والبرهان والتجربة بالعرفان ومعطياته، ولم تقر أصول الكشف والشهود في الوصول إلى المعرفة، وقد حمل لواء الفلسفة المشائية الإسلامية عقريات كبيرة مثل يعقوب بن إسحاق الكندي وأبن سينا والفارابي وأبن رشد ونصير الدين الطوسي ومحمد باقر الداماد، وبه انتهت سلطة المشائية فهو خاتمهم ومن جاء بعده لم يكن ذا أثر.

على الرغم من أنّ المشائية الإسلامية احتفظت بأصول المشائية الإغريقية وطرقها في الاستدلال والإثبات، إلا أنها اختلفت عنها عند بعض المشائين المسلمين كابن سينا بإقراره أسس العرفان الذي استندوا إليه في توسيع نطاق البصيرة وإثراء المفاهيم الفلسفية، ومع ذلك فإنهم لم يدخلوا هذه الأسس في استدلالاتهم العقلية، وتعتبر قصيدة ابن سينا في النفس الناطقة :

هبطت إليك من محل الأرفع
ورقاء ذات تعزز وتنفع
تبكي وقد ذكرت عهوداً بالحمى
بمدامع تهمي ولما تفزع

تعدُّ من أهم ركائز الجانب العرفاني، والمقدمة التاريخية لقصيدة السهوروبي العشقية «أبدأً تحن إليكم الأرواح» وقصيدة «خلعت هيأكلها بجرعاء الحمى».

وانفتاح السهوروبي على الفكر الغربي كان انفتاحاً فاعلاً لا منفعلاً، فهو بالرغم من اعتماده المنطق الصوري عند أرسطو، إلا أنه كان له ناقداً ومكملاً، فقد أنزل (المقولات العشر) لمنطق أرسطو إلى أربع، ثم جعل من المنطق الصوري سلماً صاعداً إلى عالم الإشراق. ولنفذه هذا أهمية بالغة في تاريخ المنطق، كما إنَّه ربط المنطق الصوري بعالم الإشراق في منظومة فكرية واحدة منسجمة هي أروع ما في أعماله الفكرية. ومن المعروف أنَّ حركة الفكر اليونانية في عهد أرسطو هي الوحيدة التي حدث فيها انفصال الفلسفة عن الدين، خلافاً للحضارات والثقافات القديمة الأخرى كالصينية واليابانية والهندية والإيرانية، ثم جاء السهوروبي ليجسر الهوة بينهما.

يقول الدكتور إبراهيم مذكور في حديثه عن السهوروبي: «حقاً إنه كان موسوعي النزعة لا يقنع بكتاب ولا يقف عند شيخ، ويأبى إلا أن يضم الحكماء بعضهم إلى بعض، سواء أكانوا شرقيين أم غربيين. وكأنما كان يطبق المبدأ القائل: «الحكمة ضالة المؤمن يتلمسها أنَّى وجدها». فجمع بين حكماء

الفرس واليونان، بين كهنة مصر وبراهمة الهند. وأخى بين أفلاطون وزرادشت، وبين فيثاغورس وهرمس. وشاء أن يضم الروحانيين بعضهم إلى بعض دون تفرقة بين جنس ووطن وتلك نزعة صوفية مألفة. فيرى العارفون أنهم جميعاً إخوان في الله، وفي مرحلة الوصول والحب الإلهي لا يفرق ابن عربي أو اسبيينوزا مثلاً بين دين ودين، ولابين مسلم ومسيحي».

* * *

عندما طلت الإشراقية على يد السهوروبي كانت انقلاباً حقيقياً في الفكر وثورة على المشائية، ففي حين نرى المشائية تُعرض عن السلوك العرفاني الإشراقي في الحصول على المعرفة وتعتمد طريق الاستدلال المنطقي، فإنَّ الإشراقية استفادت من المشائية والعرفانية معاً، فالإشراقيون لم ينسفوا أصول الاستدلال المنطقي، ولم يرفضوه، وإنما أقرُّوه منهاً للعقل وباعت للقوى السلوكية بالإثارة والتشويق والتحريض، وجعلوا المنزلة الأولى للسلوك الإشراقي في الوصول إلى المعارف الكبرى.

الإشراقية في جوهرها فلسفة استدلالية عقلية، وسلوكية إشراقية هدفها اتصال الأنوار التي هبطت إلى البرازخ والغواسق بالنور الأتم الأقهـر، وهي تشتـرك مع العـرفـانـ في

إقرار أصول الكشف واعتمادها، كما أشرنا إلى النقطة الرئيسية التي تفرق فيها عن العرفان في تفسير الوجود. وبهذه المازجة، وبنسخها الزرادشتية الذي سنتحدث عنه، وبهيكلها الفكري الإسلامي استطاعت أن تفتح طريقاً جديداً للعقل غير الطريق الذي سارت عليه المشائية، مُمْدَّدة العقل الإنساني والروح الإنسانية التائق بطاقة جديدة وحرية واسعة في الخلق والابتكار كانت مرتكزاً للكشف النوراني، وهيأت له قفzات سيدة وسريعة للوصول إلى الحقائق بعيداً عن قيود وجمود الاستدلال وشطحات الصوفية.

وكان لا بد لمسيرة المعرفة أن تتبع طريق التطور والتامي، فقد تلا الفلسفة الإشراقية طلوع الحكمة المتعالية عند صدر المتألهين الفيلسوف صدر الدين الشيرازي (٩٧٩ - ١٠٥٥ هـ = ١٥٥٤ - ١٦٣٤ م) ومن أهم مؤلفاته «مفاتيح الغيب»، وقد جمع في حكمته بين الفلسفة والعرفان، وبين الإلهام والاستدلال، ودمج ما بين العناصر المشائية والإشراقية والعرفانية والدينية، وأكَّد أن الشرع والعقل متطابقان في جميع المسائل الحكمية، وقال بوحدة الوجود، وتفرد بطرح نظرية الحركة الجوهرية التي ترتفق بها البشرية وتسير بها الأشياء إلى الكمال، وبالرغم من أن هذه النظرية تبدو وكأنها حملت في أعماقها بذور الدارونية إلا أنها تختلف عنها بشكل جزئي.

- الثانية: لا شك أن الفلسفة الإلشراقيّة هي فلسفة إسلامية في بنيتها، تشكّل الآراء الدينية الإسلامية أهم مكوناتها وعناصرها، ولا يقصد بالفلسفة الإسلامية أن تعني فلسفة دينية نصية مما جاء به النبي (٢) وفقهاء الإسلام والأئمة، بل هي الفلسفة التي توافق في خطوطها الكلية الفكر الإسلامي ومفهومه عن الوجود مع إمكان الاختلاف في نقاط من التفكير بفعل التمازج الديني والثقافي، وبفعل حركة فكر المفكر نفسه، وقد أشرنا إلى العناصر الإغريقية فيها، ونشير الآن إلى أن هنالك عناصر فارسية وبخاصة الفلسفة الفارسية القديمة التي بلغت أوج كمالها في الزرادشتية.

يقول السهروردي في كتابه حكمة الإلشراق:

«إن قاعدة الإلشراق هي طريق النور والظلمة التي كانت طريقة حكماء الفرس مثل جاماسب وفرشادشير وبزرجمهر ومن قبلهم» وهو يؤكد أن هؤلاء الحكماء لم يكونوا من القائلين بظاهر النور والظلمة، وإله الخير وإله الشر، أي لم يكونوا من كفارة المجروس وإلحاد «مانبي» وما يفضي إلى الشرك با الله تعالى، وإنما كانوا موحدين ومؤمنين بالله تعالى.

في الديانة الفارسية القديمة المعبد الحق، الأحد، الذي يرجع إليه الوجود هو «أهورا مزدا» وقد خلق بحكمته وجودين:

١ - الأول هو الوجود النوراني الخير المتصل بذاته، والمتواجد في عالم الإنسان يبث فيه الخير، وله إمكان الوصول إلى العالم الرباني إذا تحرر من المعيقات الظلمانية، وهذا الوجود النوراني يتمثل في عدة وجودات نورية تسمى «إيزدات» أو إمشابنداً، يسيطر عليها وجود أقوى هو «الإيزد» أو «البيزان» وهو ليس الله وإنما يعادل في الإسلام الملائكة.

٢ - الثاني: هو الوجود الظلماني الشرير، وهو ملحق بجذر العدم، وسنجد هذا الأمر أيضاً عند صدر المتألهين حيث يُعد العدم شرًّا مطلقاً، وقد عبروا عن قوة الشر هذه وعن مدها بـ«أهريمن» وبقابلة في الإسلام «الشيطان»، وليس لأهريمن القدرة على مقاومة السلطان الأهورائي (الله) وإنما هو مقهور أمامه، لأنه لا يقع مقابله وإنما يقع مقابل البيزان.

والنفس الإنسانية في الحكمة الفهلوية والخسرانية - الأهورائية - تعاني الصراع بين الإيزدات والأهريمانات، ويتقابل ذلك في الإسلام الصراع بين الملائكة والشياطين، أي بين قوى الخير والشر.

وحقيقة الوجود في العقيدة الأهورائية هي النور، وأهوراً مزدا (= الله) هو النور الأتم الأبهر الأبهر، الواجب الوجود، مخرج الأشياء من الظلمة (= العدم) إلى النور (= الوجود)،

وكلما هبطت الأنوار بتشعشعاتها وانسكابها إلى الغواص والأبدان تقلصت وسادت أحكام الظلمة، فهي لذلك تحنّ لترجم إلى النور الأثم الأقهر.

استوعب السهوروبي جميع هذه الفلسفات القديمة، والأفكار الدينية التوحيدية، والسلوكيات العرفانية، وتمثلها بفكر منفتح ببني منها حكمة الإشراق.

الحركة والتجدد بما سرّ استمرار الوجود، والثورات الفكرية التي عصفت بالفلسفة كانت ضرورية لحياة الفلسفة نفسها واستمرارها، ويشكل طلوع الحكمة الإشراقية التي تجمع ما بين الفلسفة والعلم واحدة من أهم هذه الثورات، وقفزة كبيرة في تطورها التاريخي، حررت بظهورها الفكر من التجمّد، وفتحت للعقل طريقاً آخر غير ما كان يسير عليه المشاؤون.

رسالة في اعتقاد الحكماء

من التهم التي وجهت إلى السهوروبي وكانت السبب في مقتله: اعتقاده مذهب الحكماء المتقدمين، وهو لا ينفي ذلك وإنما يدافع عنهم في كتابه «رسالة في اعتقاد الحكماء». يقول في مقدمة الرسالة:

«وسبب تحرير هذا الكتاب هو أنني لما رأيت أنه تطرق ألسنة الناس إلى أهل العلم من الحكماء المتألهين، واشتد التكفير في حقهم، ومنشأ ذلك بسبب ظن الناس في حقهم بأنهم الدهرية الذين لا يقولون بالصانع ولا بالأنبياء ولا بالحشر ولا بالنشر والمرجع والمعاد، ولا بالعذاب والراحة بعد الموت، نعوذ بالله من هذا الكلام، فعليهم لعائن الله وعلى محبيهم».

ودفاعه هذا لأغراض ثلاثة:

- ١ - إزالة الالتباس وعدم الفهم، وشرح حقيقة معتقدات الحكماء الأوائل الوج다انية قبل الإسلام.
- ٢ - التقريب بين هذه المعتقدات الوجداانية القبل إسلامية وبين المعتقدات الإسلامية.

٣ - وبما أنَّ لهذه العناصر الإغريقية والفارسية القديمة مؤثرات في فلسفتها فهو بدفعها هذا واتباعها صوابها يرسى قواعد حكمة الإشراق.

وهو يورد آراء الحكماء ومعتقداتهم مقدمة بقوله: ويقولون، ويعتقدون، ويتبعها غالباً بما يؤكدها من أحاديث نبوية ونصوص قرآنية. وسنورد بعض هذه الآراء مختصرة.

أ - ويقولون: أول ما أبدع الله تعالى أمراً عقلياً حياً عالماً، كما قال النبي (ص) «أول ما خلق الله العقل» ونلاحظ هنا التقريب بين أقوال الحكماء قبل الإسلام وبين النص الإسلامي.

ب - ويعتقدون بأن الله لا يبدع شيئاً بناء على إرادته، إذ الإرادة لا تكون إلا عند ترجيح أحد الجانبيين على الآخر إما لفزع عائد إلى ذاته أو لفزع راجع إلى فضوله.. إلى أن يقول فإذاً لا يكون فعله بناء على غرض بل ذاته يقتضي الوجود.

ت - ويعتقدون أن الإنسان أشرف الحيوانات الأرضية وله نفس ناطقة، والنفس الناطقة عند الحكيم عبارة عن جوهر عقلي، ليس في عالم العنصري ولا في عالم الأثيري، بل لا يتصور وجوده في عالم الأجسام وليس فرق بينه وبين الملائكة إلا في

تصرفة في عالم الأجسام، والنفس الناطقة قائمة بنفسها، لا في أيّت، عالمة، مدبرة للأبدان كما أشار التزيل «فالسابقات سبقاً» وهي العقول، «فالمدبرات أمراً» زهي النفوس.

ث - ويعتقدون أنَّ العوالم ثلاثة: عالم العقول وهو عالم الجبروت، وعالم النفوس وهو عالم الملائكة، وعالم الملك وهو عالم الأَجْرَام.

ج - ويعتقدون أنَّ نَفْسَ الْأَدْمِيَّ بَعْدَ المفارقة (أي الموت) إن كانت عارفة بالله وملائكته تلتذ بالقرب من الله فتجد ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خطر على قلب بشر (وهذه هي الجنة)، وإن كانت جاهلة بالله وملائكته تتأنَّم بعذاب الحجاب عن الله، وبما فات من راحة الدنيا، وباكتسابها الهيئات الرَّدِيَّة. وهذا المفهوم الباطن للحنة والنار الذي يتبناه السهوروبي بدفعه جاء به ابن عربي في فصوص الحكم (انظر الفصل السابع) حتى أرجع عذاب النار إلى العذوبة، وجعل النار مرتبة دنيا من النعيم، لأنها ستكون برداً وسلاماً كنار إبراهيم، وعذاب أهل النار هو في احتجاب الله عنهم وعدم معرفتهم به.

ح - ويعتقدون أنَّ الأنبياء عليهم السلام مبعوثون بالحق لمصلحة نظام العالم وليدُكُّروهم بالأخرة، وأنَّ النفس إن كانت شريفة

وقوية تتصل بروح القدس وتأخذ منه العلوم، ويحصل على هذه الدرجة الأولياء والأنبياء، غير أن الأنبياء مأمورون بإصلاح الحقائق وأداء الرسالة.

يقول الشهريوري: «إنه بعد هؤلاء الحكماء الأوائل وامتداد الزمن وطول العهد ضاعت طرق سلوكهم، وكيفية التوصل إلى معاينة الأنوار المجردة، وتضاعف هذا الضياع إلى الزمن المذكور». ثم يقول: «ولم يزل طريق الحكمة مسدوداً مضطرباً حتى طلع كوكب السعادة، وظهر صبح الحكمة من أفق النفس، وأشارقت أنوار الحقائق من محل الأعلى بظهور مولانا سلطان الحقيقة ومقتدي الطريقة، مظهر الدقائق وفائز الحقائق، معدن الحكمة، وصاحب الهمة، المؤيد بالملائكة، والمنخرط في سلك عالم الجبروت، بقية السلف، سيد فضلاء الخلف، أفضل المتقدمين والمتاخرين، لب الفلسفه والحكماء المتألهين، شهاب الملة والحق والدين أبو الفتوح السهوروسي».

قواعد الفلسفة الإشرافية

يقول حسين مروءة: إن النظريات الإشرافية عند السهوروبي المقتول نموذج حيٌ للتدخل بين الفلسفة العقلانية (المشائية في شكل خاص) وبين فلسفة التصوف، إضافة إلى مصادر الفكر الإشرافي المتعددة (الزرادشتية، الفيثاغورية، الأفلاطونية، والهرمية) في إطار الإسلام العام.

ويضيف مروءة: من النصوص الأصلية التي يبدو أن السهوروبي كان مستوعباً إياها بوعي جيد موضوعة «العالمية» التي يقوم عليها تاريخ الفكر الفلسفى، بمختلف أشكاله وتجلياته، في مختلف بيئاته وأزمنته. وإنه بهذا الاستيعاب وهذا الوعي بنى مذهب التصوف الإشرافي. لذلك فإن «الحركة الإشرافية، مذ ظهرت في إطار التصوف الإسلامي وجدت في السهوروبي المقتول منظماً لنظريتها المتكاملة».

يُعد السهوروبي مؤسس المذهب الإشرافي بإجماع العلماء قدি�ماً وحديثاً كما يقول هنري كوربان، ولقد تأخر العالم كثيراً

إلى أن يكتشف الموقع المتقدم لهذا المفكر الكبير، ومكانته، في حركة الفكر الإنساني.

في كتابه حكمة الإشراق وهو الجامع لفلسفته الإشرافية يتحدث السهوروبي عن الطبائع فيقسمها إلى طبائع متكررة ممتعة، وهي طبائع الوجود المادي والجسماني، وطبائع غير متكررة وهي الماهيات النورية.

ويرى أن المبدأ الحقيقي للوجود هو الواجب الوجود بذاته، النور الأتم الأبه الأبه «الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح... الخ الآية»^(١). والنور ينسكب متشعشاً من النور الأتم حتى أضعف الأنوار في الغواصق والبرازخ، والمعرفة تتم بالكشف والإشراق النوراني، وذلك بانسكاب الأنوار العقلية على الأرواح وظهورها ولمعانها وفيضاناتها بالإشراقات على النفس حين تجردها.

هذه الأنوار هي عماد العالم المادي والروحي، أما العقول المفارقة فما هي إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وترى على نظامها.

(١) سورة النور الآية ٣٥

وللنور الأتم صفات ذاتية أزلية هي: العلم والحياة والقدرة والمشيئة والسمع والبصر والتكلم. لا تتفك عنها حتى ولو هبطت في الغواصق، وإنما تختفي داخلها لتسود أحكام الظلمة.

«ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»^(١).

«هو الحي»^(٢).

وشعلة النور الجوالة من رأس مخروط النور إلى قاعدته لا تتطفئ أبداً، وللنور حسب انسكابه وتشعشعه عوالم عدة:

١ - العالم الإلهي الأقدس، وهو عالم الوجوب والغنى والإحاطة.

٢ - عالم الإمكانيات، وينقسم إلى:

أ - عالم الأنوار القاهرة الطولية.

ب - عالم الأنوار القاهرة العرضية، وعنها تنشأ أنواع الأرضية والفلكلية.

ت - عالم الأنوار الإسفهانية الفلكية^(٣).

(١) سورة الشورى ، الآية ١١ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٦٥ .

(٣) الإسفهان قائد الجيوش ، والسمهوردي يستعمل هذه الكلمة للتعبير عن طبيعة ووظائف هذه الأنوار .

ث - عالم الأنوار الإسفهبية الإنسانية وغير الإنسانية.

ج - عالم المثل المجردة المنفصلة عن عالم الأشباح المعلقة، وعن عالم المثل الهندسية المجردة عن المادة، وعالم المثل هذا يختلف عن المثل الأفلاطونية، فالإنسان يمكن أن يرى فيه كلَّ ما هو موجود في العالم الحسي من غنى وتنوع غير أنه في حالة لطيفة لا مادية.

ح - عالم البرزخ وهو عالماً: عالم الصيادي والشبكات، وعالم الغواص والأجسام.

* * *

يعرض السهروردي أفكاره عن النور في كتابه «هياكل النور» فيرى أنَّ فينا نوراً شارقاً لذِيَّا، والأجسام تشارك في الجسمية وتفاوتت في الاستمارة، ونفوسنا الناطقة أنوار قائمة بنفسها، والنفس هي قائم دلت على الحيُّ بذاته، نور الأنوار، المجرد عن الأجسام وعلاقة الأجرام، وهو / المحتجب لشدة ظهوره / ولهذا فأنت / المخصوص بطبيعة النور في الإنسان / لا تغفل عن ذاتك مع إمكانية أن تنفصل أحياناً عن جزء من بدنك، لأنَّه (أي هذا الجزء) خارج عن ذاتك النورانية، فأنت لست جملة هذه الأعضاء والأجزاء من البدن، وإنَّما أنت وراء هذه الجملة.

وكما أنَّ فينا نوراً فكذلك في الأفلاك، وهكذا فإنَّ المُعَدَّ للأفلاك جوهر عقلي، وحركة الكون إرادية، ولها إدراك كلي، ولها نفوس ناطقة، وهي أولى باللذات الروحانية، إذ ليس لها نزعات شهوية أو غضبية ولا حيوانية.

وهو يعتبر الشوق والعشق سرَّ الحركة الجوهرية لكل الموجودات في العالم، فواجب الوجود هو غاية جميع الموجودات، كمالات (أنوار شارقة) طالبة لكمالاتها، ساعية إلى تحصيل ذلك الكمال الكلي (نور الأنوار).

هكذا في مجال الحركة نرى نظام الوجود، العلوي والأرضي، في صيغته الإشرافية، نظاماً حركياً شاملأً. فكل وحداته، صعوداً وزنو لاً، مشاهدة وإشراقاً، متحركة في صورة دينامية دون انقطاع. ولكي تتجسد نظريته فإنه غالباً ما يسندها بنصوص اختصَّ بها رسائله، ومنها رسالة جناح جبريل والتي سنأتي على ذكرها.

يقول في كتابه «المشارع والمطارحات»: «وإن لكل نوع من الأنواع المفارقة، والأتربة والعنصرية، كمالاً وعشقاً إلى ذلك الكمال، وإن تصوُّر فقد ذلك الكمال هو شوق، ولو لا العشق والشوق إليه (= الله، الكلي الجمال) لما حدث حادث، ولا تكون كائناً أصلأً».

وجميع الموجودات متناهية إلى عللها، وعللها متناهية إليه، أي إلى الذي نوريته غير متناهية الشدة، وهو نور الأنوار، واجب الوجود، نَظَمَ الوجود ورتبه وحفظ نظامه باللانهاية، وهو قاهر بنوريته جميع الأنوار، وشدة نوريته حجاب لنوريته، فاختفاؤه عنا لشدة ظهره، والوجود كله منطٍ في أسره.

فالأَجْرَام، ومنها الأجسام، انطوت في قهر النفوس، والنفوس تتطوي في قهر نورية العقل، والعقول تتطوي في قهر نورية المعلوم الأول، والمعلوم الأول ينطوي في قهر نورية القيم نور الأنوار.

* * *

ما ساعد الفلسفة الإشراقية في تناول الحقائق الكبرى وتقديم تفسير لها هو ارتكازها على أمرتين معاً:

- 1 - إقرارها أصول الكشف والشهود، وانطلاقها من رؤية كونية كلية قائمة على التفكُّر والعرفان (الحدس العرفاني والمعرفي).
- 2 - اعتمادها على الاستدلال العقلي لتقرير الأصول والمبادئ وفي تناول المسائل (المنطق العقلي).

أما السعادة فيراها منوطـة بالعلوم الحقيقة دون غيرها، والعلوم الحقيقة قسمان: ذوقـية كشفـية تتم بـأنوار إـشـراقـية، وبـحـثـيـة

نظيرية، والذوقية الكشفية كما أشار الشهريزوري في مقدمته لا يصل إليها إلا قلة من الحكماء وبالتحديد الحكماء المتألهون الفاضلون أمثال أرسطو، وأغاثا زيمون، وهرمس، وإنبادفلس، وفيثاغورث، وسقراط، وأفلاطون.. وغيرهم وهؤلاء غير خالين من البحث. وقال عن أستاذة السهوروبي «كان مبرزاً في الحكمتين الكشفية والبحثية، بعيد الغور فيما لا يدرك شأوه ولا يُلحق غوره».

* * *

إنَّ ما وصل إليه السهوروبي بإشرافه، وما أتى به فلاسفة آخرون قبله، هو موضوع بحث طائفة من العلماء اليوم.. يقول العالم الفيزيائي جان أ. شارون: «إن كل المادة إذن تصبح حاملة للروح، وكل محاولة لإقامة تصور علمي حتى ولو كانت محاولة البيولوجيا إذا ما أقصت حقيقة الروح تصبح ملفقة ولاغية، إن الموقف العلمي الحالي يقوم على التمسك بأحسن نموذج تقدمه الفيزياء، وهو النموذج الذي يقرُّ بوجود الروح في كل جُزْيءٍ من جزئيات المادة».

لقد كانت فكرة أنَّ الكواكب كانتات حية وذوات أنفس ناطقة كما عبر عنها السهوروبي تبدو صعبة القبول، لكنَّ وصول

الإنسان إلى القمر ورحلات الفضاء عبر الكواكب حركت من جديد هذه الأفكار القديمة، وإن مشاهدة الأرض من الفضاء أعطت بارقة جديدة تتمثل في أنَّ الكوكب ككل قد يكون كائناً حياً، وأنَّ ملاحظة الاستقرار المتجانس والتوازن المذهل على سطح الكوكب وببيئته وبيولوجياه هو النظر إليه كمنظومة حية واحدة، أي ككائن حي كما أشار إلى ذلك السهوروسي وصدر الدين الشيرازي وفلاسفة آخرون. ويضيف السهوروسي قائلاً: «وللأفلاك أصوات غير معنلة بما عندنا، ويجوز في الأفلاك أصوات ونغمات غير مشروطة بالهواء المصاكرة».

وبمناسبة صدور كتاب «الوجه المتلاشي لغايا: التحذير النهائي» بقلم د. جيمز لفلاوك، وكتاب «بحثاً عن غايا» لجون غريبين وماري غربين، كتب «تيم فلانري» مقالاً في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس يقول فيه:

«تعود فكرة أن الأرض كائن حي إلى أفلاطون على أقل تقدير الذي اعتقد كما أفادنا «فرنسيس بيكون» بأن الكوكب «عبارة عن مخلوق حيٌّ وكامل وتمٌّ» ولكن د جيمس لفلاوك وزميلته لين مارغوليس هما اللذان طورا من السبعينيات من القرن العشرين فرضية علمية قابلة للاختبار رمت إلى البحث عن خواص الأرض التي تشي بأنها كائن حيٌّ، وتعرف هذه

الفرضية باسم «فرضية غايا» وتقول إنَّ الحياة على الأرض تعمل على نحو تبقي شروط الحياة على سطح الكوكب موافقة للحياة نفسها»^(١).

هذا الوعي الكوني في نهر الكون.. في الكواكب، في الذرة.. الذي تحدث عنه «دافيد بوهم»، «ألفلوك»، «شارون».. وغيرهم هو ذلك النور الشارق اللذِّي في الأفلاك والأبدان، الفائض عن النور الأتم الأَقْهَر، والمشوق إليه، العاشق لذاته، هو «النفس» التي تحرك جميع الموجودات وتنظم قوانينها، وتحفظ توازنها واستقرارها.. كما يرى السهوروبي.

والتوازن والاستقرار لا يعنيان انعدام التضاد، فالتضاد من ضرورة اللانهاية، ولو لاه ما صح الكون من الفساد، ولو لاه ما صح دوام الفيض على التجدد المستمر، ولم يحصل من النفوس الناطقة المبلغ اللامتاهي، ولو لاه لانعدمت الحياة، فما هو شر بالنسبة لشخص ما إذا تم النظر إليه من خلال النظام الكوني فهو خير.

على أساس النور ابنتي السهوروبي نظريتها في المعرفة، فالنور عاشق لذاته، إذا تنزل إلى البرازخ والغواصق

(١) المقال ترجمته توفيق الأسد ونشر في جريدة شرفات. ع ١٠٧.

والصيادي الإنسانية انعطف إلى مبدئه الأتم الأقهر، واشتاق إليه بفطرته، فيجذبه النور الأقهر إلى قدره، وهذا يعني أن هذه الأنوار الشارقة لا تحل في أجساد أخرى بعد صياديها (بعد موتها) لكمال قوتها وشدة انجذابها إلى ينابيع النور، وإنما هي نزلت أصلاً إلى عالم «الظلمات الجسدية» لاستكمال معرفتها بعالم الجزيئات، واصطياد بعض الكنالات الممكنة، والعلوم الجزئية، ويشخص هذه الفكرة في قصته الغربية الغربية.

ثم يقع النور النازل المتصاعد على أفق الجلال، قيتشعشع من ذلك الأفق ويمد سائر الأنوار كي تصعد من جديد إلى النور الأول، مبتدأ الإشراق، وثمة أنوار صاعدة بذواتها لكمال قوتها، وأنوار أخرى في حاجة إلى مددات لاستكمال صعودها.

ومثلما انبثق العالم من إشراق الحق وانسكاب الأنوار وتشعشعها، فإن المعرفة تعني الوصول العيني إلى الحقيقة العينية، وذلك لا يتم إلا بتصاعد الأنوار الإسفهيدية من جديد إلى مبتدئها بعد نزولها الأول، وبرحلة الأنوار النازلة الصاعدة، وبهذه الجوهرية الكلية المستمرة المتتجدة تتحقق المعرفة.

هذا هو السهروري، سيد الوقت، وحكيم العصر، والمؤيد بالملوك، وواضع أسس الحكمة الإشراقية، وأحد بناء المعرفة

الإنسانية، ومن أحاطت حياته بهالة قدسية، وكانت شهرته تنتدمه إلى كل بلاد توجه إليه، قضى وهو في ريعان شبابه، ولو امتد به العمر لاستكمل ما بدأ، وأغنى الإنسانية بما كتب في نظرية المعرفة، ولأثرى المكتبتين العربية والفارسية بنصوصه الأدبية، النثرية والشعرية المتميزة.

سمفونية شعرية في العشق

لعل أجمل قصائد الشاعر الإشراقي الكبير شهاب الدين السهوروسي هي قصيده الحائية الشهيرة، إنها تقدم نموذجاً حياً لما يتصف به شعره من طبع ورونق وجمال وسلامة وموسيقى تتبع من حركة النفس الداخلية العاشقة، بالإضافة إلى عمق المعاني ونبلها، وهي تجري بألفاظها المنتقاة، وعباراتها المجنحة، وإيقاعاتها المتدافعـة كالنهر الهاـدر.

ووصالكُم ريحانـها والرـاحـ
وإلى لـذـى لـقـائـكـم تـرـتـاحـ
سـترـ المـحـبـةـ وـالـهـوى فـضـاخـ
وكـذا دـمـاءـ العـاشـقـينـ تـبـاخـ
عـنـدـ الوـشـأـةـ المـدـمـعـ السـفـاخـ
بـجـفـائـكـمـ غـيرـ الفـسـادـ صـلـاخـ
لـلـصـبـ فـي خـفـضـ الجـنـاحـ جـنـاخـ
فيـهاـ لـمـشـكـلـ أـمـهـمـ إـيـضاـخـ

أـبـدـأـ تـحـنـ إـلـيـكـمـ الأـرـوـاحـ
وـقـلـوبـ أـهـلـ وـدـادـكـمـ تـشـتـاقـكـمـ
وـأـرـحـمـتـاـ لـلـعـاشـقـينـ تـكـلـفـواـ
بـالـسـرـ إـنـ باـحـواـ تـبـاخـ دـمـاؤـهـمـ
وـإـذـاـ هـمـ كـتـمـواـ تـحـدـثـ عـنـهـمـ
أـحـبـابـنـاـ ماـذـاـ الـذـيـ أـفـسـدـتـمـ
خـفـضـ الجـنـاحـ لـكـمـ وـلـيـسـ عـلـيـكـمـ
وـبـدـتـ شـوـاهـدـ لـلـسـقـامـ عـلـيـهـمـ

وإلى رِضَاكُمْ طَرْفَه طَمَاح
 فالهُجُرُ لَيْلٌ وَالوِصَالُ صَبَاحٌ
 في نُورِهَا المِشَكَاهُ وَالْمِصَابَحُ
 راق الشَّرَابُ وَرَقَتِ الْأَقْدَاحُ
 إِنْ لَاحَ فِي أَفْقِ الْوِصَالِ صَبَاحٌ
 كِتَانَهُمْ فَنَما الْغَرَامُ فَبَاحُوا
 لَمَّا دَرُوا أَنَّ السَّمَاحَ رَبَاحٌ
 فَغَدُوا بِهَا مُسْتَأْسِينَ وَرَاحُوا
 بَحْرًا وَشِدَّةَ شَوْقِهِمْ مَلَاحٌ
 حَتَّى دَعُوا فَأَتَاهُمْ الْمَفَاتِحُ
 أَبْدَأَ فَكُلُّ زَمَانِهِمْ أَفْرَاحٌ
 فَتَهَكُوا لَمَّا رَأَوْهُ وَصَاحُوا
 حَبْ جَبُ الْبِقَا فَتَلَاثَتِ الْأَرْوَاحُ
 إِنَّ التَّشَبِهَ بِالْكِرَامِ فَلَاحٌ
 فِي كَأسِهَا قَدْ دَارَتِ الْأَقْدَاحُ
 لَا خَمْرَةَ قَدْ دَاسَهَا الْفَلَاحُ
 غَرَضُ النَّدِيمِ فَنَعَمْ ذَكَ الرَّاحُ
 وَلَهُ بِذَكِّ رَئَةٌ وَنِيَاحٌ
 إِلَى لِقاءِ سِواهِ مَا يَرْتَاحُ

فِي إِلَى لِقَاءِكُمْ نَفْسَهُ مُرْتَاحَةٌ
 عُودُوا بِنُورِ الْوَصِيلِ مِنْ غَسَقِ الدُّجَى
 صَافَاهُمْ فَصَفَوْا لَهُ فَقْلُوبِهِمْ
 وَتَمْتَعُوا فَالْوَقْتُ طَابٌ لِقَرْبِكُمْ
 يَا صَاحِ لَيْسَ عَلَى الْمُحِبِّ مِلَامَةٌ
 لَا ذَنْبٌ لِلْعُشَاقِ إِنْ غَلَبَ الْهُوَى
 سَمْحُوا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا بَخْلُوا بِهَا
 وَدَعَاهُمْ دَاعِيُ الْحَقَائِقِ دُعْوَةٌ
 رَكِبُوا عَلَى سُنْنِ الْوِفَا وَدُمُوعُهُمْ
 وَاللَّهِ مَا طَلَبُوا الْوُقُوفَ بِبَابِهِ
 لَا يَطْرِبُونَ بِغَيْرِ ذِكْرِ حَبِيبِهِمْ
 حَضَرُوا وَقَدْ غَابَتْ شَوَاهِدُ ذَاتِهِمْ
 أَفَنَاهُمْ عَنْهُمْ وَقَدْ كَشَفَتْ لَهُمْ
 فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثَالَهُمْ
 قُمْ يَا نَدِيمَ إِلَى المَدَامِ فَهَاهُهَا
 مِنْ كَرِمِ أَكْرَامِ بَدْنَ دِيَانَةٍ
 هِيَ خَمْرَةُ الْحُبِّ الْقَدِيمِ وَمُنْتَهِيَ
 وَكَذَكَ نُوحَ فِي السَّفِينَةِ أَسْكَرَتْ
 وَصَبَتْ إِلَى مَلْكُوتِهِ الْأَرْوَاحُ

وَكَانَمَا أَجْسَامُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
فِي ضُوئِهَا الْمِشْكَاةُ وَالْمِصْبَاحُ
مَنْ بَاهَ بَيْنَهُمْ بِذِكْرِ حَبِيبِهِ
دَمَهُ حَلَّ لِلسَّيْفِ مُبَاخٌ

أهي قصيدة في العشق أم رسالة فلسفية؟

وهل ينفصل العشق عن الإشراق؟ العشق علة إشرافات النور وحركة الكون، والسمهوردي هو أول فيلسوف إشرافي يؤلف رسالة في العشق كما أشار إلى ذلك الشهريزوري في «نزهة الأرواح وروضة الأفراح». ولا ن جانب الصواب إذا قلنا إنَّ هذه القصيدة هي الهيكل الشعري لفلسفته الإشرافية من غير أن يتقلها بالمصطلحات، وبمثل هذا الشعر العذب المشرق غزا شهاب الدين قلوب الناس، وما كان شعره إلا النتاج الإبداعي لعشقه الإلهي وفلسفته الإشرافية التي تقيم تفسير الوجود على أساس النور وقواعده في الوقت الذي كان فيه العرفان (= التصوف) يقيم تفسير الوجود على أساس الأسماء والصفات.

إنَّ الحنين الذي تتحدث عنه الأبيات هو واحد من أهم قواعد فلسفة الإشراق، فالنور عاشق بذاته لذاته، فإذا هبط من موطنه الأقدس إلى البرازخ والظلمات الدنيوية (= كل ما هو جسم مادي أو بدن) اشتاق بـجَلَّته، وجذبه النور العلي اللامتناهي الأتم الأنوار إليه، فعرج وارتدى ثانيةً إلى مبدئه، والأنوار الإسفهادية

تستطيع العودة إلى مبدئها بتحرير ذواتها مما ينتقلها في عالم البرازخ المادي والجسماني، وهذه الأنوار نوعان:

١ - أنوار متصاعدة بمعينات خارجية.

٢ - أنوار متصاعدة بذواتها، وأصحابها هو الأولياء والمعصومون.

ما يميز هذه القصيدة هو ذلك التمازج الرائع بين الصور الرمزية ومدلولاتها الشوقيّة والعشقية، ورمزية الخمرة الإلهية التي لم يعتصرها فلّاح، كلما احتسّاها ازداد عشقاً وبواحاً بالأسرار، وبسبب هذا البوح - غير المشروع في أعراف المتّصوفة - قُتل السهوردي، والذي كان غالباً ما يجسد نظريته المعرفية بالإبداع الشعري والنثري.

قصة الغربة الغربية^(١)

تعتبر قصة «الغربة الغربية» من بوادر الإبداع النصي في الفلسفة الإلحادية وتمثل رحلة البحث عن حقيقة النفس وهي على غرار «رسالة الطير» لابن سينا، و«رسالة حي بن يقطان» لابن سينا أيضاً، وهي نموذج رائع للقصة الرمزية.

يقول السهوري:

سافرت مع أخي عاصم من ديار ما وراء النهر لنصيد طائفة من طيور لجة الخضراء فوقعنا بغنة في قرية الظالم أهلها، أعني مدينة قيروان، فلما أحسَّ أهلها أننا قدمنا عليهم ونحن من أولاد الشيخ المشهور هادي بن أبي الخير اليماني، أحاطوا بنا وأخذونا وقيدونا بسلاسل وأغلال من حديد، وحبسونا في قعر بئر لا نهاية لسمكها.

وكان فوق البئر المطلة التي عمرت بحضورنا قصرَ مشيد عليه أبراج عالية، فقيل لنا: لا جناح عليكم إن صعدتم القصر

(١) حققها وقدمها وشرحها هنري كوربان. مجموعة دوم مصنفات إشراق.

متجردين مساء، أما عند الصباح فلا بد من **الهُويّ** في غيابه الجب، إلَّا آنَا في آونة المساء نرتقي القصر مشرفين على الفضاء ناظرين من كوة، فربما تأتينا حمامات من أيوك اليمن مخبرات بحال الحمى، وأحياناً تزورنا بروق يمانية تومند من الجانب الأيمن الشرقي وتخبرنا بطارق نجد، وتزرينا رياح الأراك وجداً على وجد، فنتحنّن ونشتاق إلى الوطن.

فيينا نحن في الصعود ليلاً والهبوط نهاراً إذ رأينا الهدد مسلّماً في ليلة قمراء، وفي منقاره رقعة صدرت من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وقال لنا: إنّي أحطت بوجه خلاصكم وجئتكم من «سباً بنبأ يقين»، وهو ذا مشروح في رقعة أبيكما.

فلما قرأت الرقعة فإذا فيها أنه من الهادي أبيكما، وأنه : بسم الله الرحمن الرحيم، شوّقناكم فلم تشتاقوا، ودعوناكم فلم ترتحلوا، وأشارناكم فلم تفهموا. وأشار في الرقعة إلى بأنك يافلان إن أردت أن تتخلص مع أخيك فلا تتبأ في عزم المسير، واعتصما بحبنا، وهو جوهر الفلك القدسي المستولى على نواحي الكسوف، فإذا أتيت وادي النمل فانفض ذيلك، وقل : الحمد لله الذي أحيانني بعد ما أماتني «إليه النشور»، وأهلك أهلك (= أهلك الشهوة)، واقتلت امرأتك «إنها كانت من الغابرين»، وامض

حيث تؤمر فـ«إن دابر هؤلاء مقطوع مصبين» واركب في السفينة، وقل «باسم الله مجريها ومرسيها».

وشرح في الرقعة جميع ما هو كاين في الطريق، فتقدم الهدد وصارت الشمس فوق رؤوسنا إذ وصلنا طرف الظل، فركبنا في السفينة وهي تجري بنا «في موج كالجبال»، ونحن نروم الصعود على طور سيناء حتى نزور صومعة أبينا، وحال بيني وبين ولدي (= الروح الحيواني) «الموج فكان من المغرقين»، وعرفت أنَّ قومي «موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب؟» وعلمت أن القرية التي كانت تعمل الخبائث يجعل عاليها سافلها، ويمطر «عليها حجارة من سجيل منضود». فلما وصلنا إلى موضع تتلاطم فيه الأمواج، وتندحرج المياه، أخذت ظئري التي أرضعتني وأقيتها في اليم (= الروح الطبيعية).

وكنا نسير في جارية «ذات الواح ودسر» خيفة ملك من ورائنا «يأخذ كل سفينة غصباً» والفالك المشحون قد مر بنا على جزيرة يأجوج ومأجوج إلى الجانب الأيمن من الجودي، وكان معى من الجن (= قوة الخيال والفكر) من يعلم بين يديه، وفي حكمي عين القطر (= الحكمة، القوة الفطرية) فقلت للجن «انفخوا حتى صار مثل النار» فجعلت سداً حتى انفصلت عنهم، وتحقق «وعد ربى حقاً».

رأيت في الطريق جماجم عاد وثمود، وطفت في تلك الديار «وهي خاوية على عروشها» وأخذت التقلين مع الأفلاك، وجعلتها مع الجن في قارورة صنعتها أنا مستديرة وعليها خطوط كأنها دواير (= الدماغ)، فقطعت الأنهر من كبد السماء، فلما انقطع الماء عن الرحى انهدم البناء فتخلص الهوى إلى الهواء، وألقيت فلك الأفلاك على السماوات، حتى طحن الشمس والقمر والكواكب، فتخلصت من أربعة عشر تابوتاً (= القوة الجاذبة والمسكة والدافعة.. الخ) وعشرة قبور (= الحواس الظاهرة والباطنة) عنها ينبئ ظلَّ الله، حتى يقبضني إلى القدس «قبضاً يسيراً» بعد أن «جعل الشمس عليه دليلاً».

ولقيت سبيل الله ففطنت «أنَّ هذا صراطي مستقيماً»، وأختي وأهلي (= هيولى الأجسام) قد أخذتها «غاشية من عذاب الله: بياتاً، فباتت في قطع من الليل مظلماً، وبها حمى وكابوس يتطرق إلى صرع شديد. ورأيت سراجاً فيه دهن (= العقل الفعال، والدهن قوام الأجسام) وينجس منه نور ينتشر في أقطار البيت، ويشتعل مشكاتها، ويشعل سكانها من إشراق نور الشمس عليهم، فجعلت السراج في فم تنين ساكن في برج دولاب، تحته بحر قلزم، وفوقه كواكب ما عَرَفَ مطارح أشعتها إلا بارئها «والراسخون في العلم».

ورأيت الأسد والثور قد غابا (= الغضب والشهوة)، والقوس والسرطان قد طُويَا في طيٌّ تداول الأفلاك، وبقي الميزان مستوياً إذا طلع النجم اليماني (= النفس الكلية) من وراء غيوم رقيقة متألقة مما نسجته عناكب زوايا العالم العنصري في عالم الكون والفساد. وكان معنا غنم (= الخوف) فتركناها في الصحراء، فأهلكتها الزلازل، ووَقَعَتْ فيها نار الصاعقة.

ولما انقطعت المسافة، وانقرض الطريق «وفار التتور» من الشكل المخروط (= القلب) رأيت الأجرام العلوية، اتصلت بها، وسمعت نغماتها ودستاناتها، وتعلمت إنشادها، وأصواتها تقع سمعي كأنها صوت سلسلة تُجرُّ على صخرة صماء فتكاد تتقطع أوتاري وتتفصل مفاصلني من لذة ما أنان، ولا يزال الأمر يتكرر علىٰ حتى انقضع الغمام، وتخرقت المشيمة (= ارتفاع الحجاب). وخرجت من المغارات والكهوف حتى تقضي من المرات متوجهاً إلى عين الحياة، فرأيت الصخرة العظيمة على قلّة جبل كالطود العظيم، فسألت عن الحيتان المجتمعة في عين الحياة المتنعمّة المتلذذة بظل الشاهق الأعظم: إن هذا الطود ما هو؟ وما هذه الصخرة العظيمة؟ فاتخذ واحدٌ من الحيتان سبيلاً في البحر (= العلم) سرباً فقال: ذلك ما كنت تبغى، وهذا الجبل هو طور سيناء (= فلك الأفلاك)، والصخرة صومعة أبيك (=

العقل الكلي)، فقلت وما هؤلاء الحيتان؟ فقال؟ أشباهاك، أنتم بنو أبٍ واحدٍ، ووقع لهم شبيه واقعنك، فهم أخوانك. فلما سمعت وحققت عانقتم ففرحت بهم وفرحوا بي.

وصعدت إلى الجبل، ورأيت أبي شيخاً كبيراً تقاد السماوات والأرضون تتشقّ من تجلّي نوره، فبقيت تايهاً متحيراً منه، ومشيت إليه فسلم علىَّ فسجدت له، ولذت أنمحق في نوره الساطع، فبكى زماناً، وشكوت إليه من حبس قيروان، فقال لي: نعم تخلصت إلا أنك لا بد راجع إلى السجن الغربي، وإن القيد بعد ما خلعته تماماً (= جئت بالتفكير والإلهام ولم تمت بعد)، فلما سمعت طار عقلي، وتأوهت صارخاً صراخ المشرف على الهلاك، وتضرعت إليه فقال: أما العَوْدُ لك فضروري الآن، ولكنني أبشرك بشيئين: أحدهما أنك إذا رجعت إلى الحبس يمكنك المجيء إلينا والصعود إلى جنّتنا متى شئت، والثاني: أنك تتخلص في الأخير إلى جنابنا تاركاً البلاد الغربية بأسرها مطلقاً، ففرحت بما قال.

ثم قال لي: اعلم أن هذا هو جبل طور سيناء، وفوق هذا جبل طور سينين مسكن والدي وجدى، وما أنا بالإضافة إليه إلا مثالك بالإضافة إليّ، ولنا أجداد آخرون، حتى ينتهي النسب العظيم إلى الملك الذي هو الجد الأعظم الذي لا جد له ولا أب، وكلنا عبده،

وبه نستضيء، ومنه نقتبس وله البهاء الأعظم، وله الجلال الأرفع، والنور الأقهر وهو فوق الفوق، ونور النور، وفوق النور أزلاً أبدياً وهو المتجلى لكل شيء بكل شيء، وكل شيء هالك إلا وجهه (= الله واجب الوجود).

فأنا في هذه القصة (= اللذة)، إذ تغير الحال على وسقطت من الهواء في الهاوية بين قوم ليسوا بمؤمنين، محبوساً في ديار المغرب، وبقي معى من اللذة ما لا أطيق شرحه، فانتهيت وابتهدت، وتحسرت على المفارقة، وكانت تلك الراحة أحلاماً زائلة على سرعة.

نجانا الله من أسر الطبيعة وقيد الهيولى «وَقُلْ حَمْدُ اللَّهِ سَيِّدِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْلَمُونَ»، «وَقُلْ حَمْدُ اللَّهِ بْلَ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ»، والصلوة على نبيه وآلـهـ أجمعين

* * *

من الواضح أن هذه القصة هي تمثيل فني قصصي للفلسفة في الأنوار وتشعشعها، وهبوطها وصعودها، وخلوص النفس من عالم الغواصق والأجساد، ونظرًا لأهمية القصة نورد بعضًا من الرموز والشروط الضرورية الأخرى عدا ما شرح بين قوسين، وهي من تحقيق وشرح هنري كوربان.

لما سافرت

أي (ضمير المتكلم، الروح المسافرة
الهابطة من منشئها العلوي).

مع أخي عاصم

أي (القوة الفطرية المعرفية العصمة من
الضلال).

من ديار ما وراء النهر أي (العالم العلوي).

إلى بلاد المغرب أي (عالم الهيولي الغريب عن عالم
الروح).

لنصيد طائفة من طيور أي (العلوم الجزئية، الكمالات الممكنة
للنفس).

ساحل اللغة الخضراء أي (العالم المادي المحسوس، العقل
المستفاد).

القرية الظالم أهلها قيراوان أي (الدنيا، العالم الأرضي، الجسد).
فلما أحس قومها أي (قوى الترابية الجسمانية، غواائق
الأبدان).

الشيخ الهداي بن الخير اليماني أي (الفيض الأول، العقل الفعال،
واليماني لقوله (٢) : إنني لأجد
نفس الرحمن من قبل اليمن.

مقيدين بسلسل وأغلل أي (الغرائز والشهوات، الهيئات الدنيوية
الردية).

حبسونا في قعر بئر أي (البدن، العالم الظلماني، عالم العناصر).
البئر التي عمرت بحضورنا أي (بحلول الروح في الجسد).
قصر مشيد
أي (النفوس الفلكية).

عليها عدة أبراج
أي (الأفلاك).
متجردين إذا أمسيت
أي (إذا نتم، لأنه في النوم تتغطى
الحواس وتتحرر الروح).

أما عند الصبح
أي (العودة إلى أسر المحسوسات).
الهوي في غيابة الجب
أي (حبس البدن).

يأجوج ومأجوج
أي الخيالات الفاسدة.
الجانب الأيسر من الجودي أي العالم العقلاني.

الشمس فوق رؤوسنا
أي قرب الموت.
وصلنا طرف الظل

أي مفارقة الهيولي عن الصورة، أي
عن النفوس الجزئية المجردة.
ظلمات بعضها فوق بعض أي كثافات الهيولي والأجسام.

رسالة أصوات أجنحة جبريل

يمتلك السهوروبي خيالاً جامحاً يأتي بكلّ ما هو غريب ومدهش، ولغة مشرقة، وقدرة على إجراء حوار مركزٍ عميق الفكر، كلّ ذلك في فانتازيا قصصية أو حوارية جعلته متفرداً، ومن السابقين في التأسيس للقصة الرمزية الفلسفية والصوفية، و«صوت أجنحة جبريل» نموذج لهذا الجنس الأدبي.

يقول شيخ الأشراق:

لما انطلقتُ من حُجرة النساء، وتخلصتُ من بعض قيود ولفائف الأطفال. كان ذلك في ليلةٍ، انجاب فيها الغسقُ الشهبيُّ الشكل، مستطيراً عن قبة الفلك الازوردي، وتبددتُ الظلمةُ التي هي أخت العدم، على أطراف العالم السفلي.

وبعد أن أمسيتُ في غاية القنوط من هجمات النوم، أخذت شمعاً في يدي، متضجراً، وقصدت إلى رجال قصر أمي. وطوقتُ في ذلك الليل، حتى مطلع الفجر. وعندئذ، سمح لي هوسُ دخولِ دهليز أبي. وكان لذلك الدهليز، بابان: أحدهما إلى

المدينة، والآخر إلى الصحراء والبساتين. قُمتُ، فأغلقتُ الباب الذي يؤدى إلى المدينة إغلاقاً محكماً، وبعد رَتْجِه، قصدتُ إلى الفتق الذي يؤدى إلى الصحراء. وعندما رفعتُ الترس، نظرتُ، فإذا عشرةٌ شيوخٌ، حسان السيماء، قد اصطفوا هناك صفاً صفاً.

وقد أتعجبتني هيئتهم وجلالتهم وهيبتهم وعظمتهم وسناهم، وظهرتُ في حيرةٍ عظيمة من جمالهم وروعتهم، حتى انقطعت عنِي مُكْنَةُ نطقِي. وفي وجْلٍ عظيمٍ، وفي غَايَةٍ من الارتجاف، فَدَمَتُ رجلاً وأخرّتُ أخرى. وعندئذ قلت لنفسي: لنتشجع، ولنكن مستعدِين لخدمتهم، ول يكن ما يكون.

سرتُ رويداً إلى الأمام، للسلام على الشيخ الذي وقف في طرف الصف، غير أنه بسبب غاية حسن خلقه، سبقني بالسلام، وتبسم في وجهي تبسمًا لطيفاً، حتى تجلَّى شكلُ نواجذه أمام حدقتي. ورغم مكارم أخلاقه وشِيمِه بقيتْ مهابته تغلب على نفسي.

سألته: من أين أقبل هؤلاء السادة، إن جاز لي السؤال؟
أجابني الشيخُ الذي على طرف الصف، قائلاً: إنا جماعة متجردين، وقد وصلنا إليك من كجا آباد.
لم أفهم مقاله.

سألته: في أي إقليم توجد تلك المدينة؟

قال: في إقليم لا تجد السَّبَابَةَ إِلَيْهِ مَتَجَهًا. وإذا ذاك علمت أنه
شِيخٌ مُطَلِّعٌ.

قلت: أخبرني بفضلكم، ما الذي يشغلكم أكثر أوقاتكم؟

قال: إن حرفتنا الخياطة، وكل واحدٍ منا يحفظ كلامَ الربِّ عن
سلطانه، وإننا لسائحون.

سألته: ولماذا يلزم الصمت هؤلاء الشيوخ، الذين يقفون
على رأسك؟

فأجاب: لأنَّ أمثالكم ليسوا أهلاً لمحاورتهم، أنا لسانهم، وأما
هم فلا يكلمون أشباهك.

قلتُ: أتسبحون الله عزَّ وجلَّ؟

قال: الاستغراق في المشاهدة يشغلنا عن التسبيح، وإن كان
هناك تسبيح، فإنه ليس بواسطة الألسن والجوارح، ولا بحركةٍ
واهتزازٍ وما إلى ذلك.

قلت: هل تعلمْنِي علمَ الخياطة؟

تبسمَ وقال: للأسف، ليس لأشباهك ولنظرائك قِبَلَ بهذا، فإنَّ
ذلك العلم غير ميسَّرٌ لنوعك، وذلك أنَّ خياطتنا لا تتعلق بعمليةٍ

وَقَصْدٌ وَالْهُ، لَكُنِي سَأُعْرِفُكَ مِنْ عِلْمِ الْخِيَاطَةِ، قَدْرٌ مَا يُمْكِنُكَ مِنْ
تَصْلِيْحٍ خَرْقَتِكَ الْخَشْنَةُ الْمَرْقَعَةُ.

وَقَدْ عَلِمْتَنِي ذَلِكَ الْقَدْرُ مِنْ الْعِلْمِ..

ثُمَّ قَلْتَ: عَلِمْنِي إِلَآنَ كَلَامَ اللهِ.

قَالَ: إِنَّ الْمَسَافَةَ عَظِيمَةٌ، وَمَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، فَلَا
يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ كَثِيرًا مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى، وَلَكُنِي أَعْلَمُكَ قَدْرُ مَا
أَنْتَ مَيْسَرٌ لَهُ! وَأَهْبَطْتُ لَهُ حُرُوفَ هَجَاءَ عَجِيبَةً،
حَتَّى إِنِّي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْهَمَ بِوَاسْطَةِ الْهَجَاءِ، مَعْنَى كُلِّ سُورَةِ مِنْ
السُورِ.

ثُمَّ قَالَ: الَّذِي لَا يَفْهَمُ هَذَا الْهَجَاءَ، لَا يَصْلُ إِلَى مَعْرِفَةِ سُورَ
كَلَامِ اللهِ، عَلَى مَا يَنْبَغِي؛ وَأَمَّا الَّذِي اطْلَعَ عَلَى أَحْوَالِ ذَلِكَ
الْهَجَاءِ، فَقَدْ يَظْهُرُ فِيهِ رِسُوخٌ وَمَتَانَةٌ.

وَعِنْدَئِذٍ تَعْلَمَتُ عِلْمَ الْأَبْجَدِ. وَبَعْدَ إِتْمَامِ دراستِي إِيَاهُ، نَقَشْتُ
حُرُوفَهُ عَلَى اللَّوْحِ، عَلَى قَدْرِ مَا كَانَ فِي مَرْتَقِي قَدْرَتِي،
وَمَسْرَى طَاقِي. وَعِنْدَئِذٍ ظَهَرَتْ لِي مِنْ عَجَابِ مَعْنَى كَلَامِ
الرَّبِّ، عَزَّ سُلْطَانَهُ، مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرِ الْبَيَانِ، وَحْدَهُ. وَكُلُّمَا
طَرَأَتْ لِي مُشَكَّلَةٌ، عَرَضْتُهَا عَلَى شِيخِي وَهُوَ يَزِيْحُ إِشْكَالَهَا.

ثُمَّ دَارَ حَدِيثُنَا حَوْلَ نَفْثِ الرُّوحِ، وَقَدْ أَشَارَ الشِّيْخُ إِلَى أَنَّ
الرُّوحَ يَشْتَقُ مِنْ رُوحِ الْقَدْسِ. وَعِنْدَمَا سُئِلَ عَنْ نَسْبَةِ مَا بَيْنَهُمَا،

أجاب قائلاً: إن كل ما يتحرك في أربعة أرباع العالم السفلي،
يشتق من أحجحة جبرائيل.

ولما باحثت الشيخ في كيفية هذا النظام، قال: اعلم أن للحق سبحانه وتعالى، عدة كلمات كبرى، تتبعث من كلماته النورانية، أي من شعاع سماء وجهه الكريم. وبعضها فوق بعض.. وأخر تلك الكلمات: جبرائيل عليه السلام. وأرواح الآدميين تتبعث من تلك الكلمة الأخيرة.. الآدميون نوعٌ واحد، ومن له روحٌ فله كلمة. ومن آخر الكلمات الكبرى، تظهر كلماتٌ صغرى من غير حدّ، على ما أشير إليه في الكتاب الرباني بقوله (ما نفذت كلمات الله) وقال (لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي).

أما الكلمات الكبرى، فهي التي قيل عنها في الكتاب الإلهي (فالسابقات سبقا) وأما قوله (فالمدبرات أمرا) فهم الملائكة، محركو الأفلاك، وهى الكلمات الوسطى. وكذلك، فإن قوله تعالى (وَإِنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ) إشارة إلى الكلمات الكبرى، وقوله (إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) إشارة إلى الكلمات الوسطى. ولأجل هذا تقدمت عبارة (الصافون) في كل مكان من القرآن المجيد، إذ قال: (وَالصَّافَاتِ صَفَا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجَرًا) وفي هذا غورٌ بعيد، لا يليق استيعابه بهذا المحل! وقد تُستعمل «الكلمة» في القرآن أيضاً، بمعنى السر.

قلت للحكيم: أخبرني الآن عن جناح جبرائيل.

قال: أعلم أنَّ لجبرائيل جناحين، أحدهما عن يمينِه وهو نورٌ ممحض، وهذا الجناح ينضاف مجرد وجوده إلى الحق. وأما الجناح الأيسر، فتمتد عليه بقعةُ سوداء، كأنها الكلفُ الذي يظهر في وجه القمر، أو كأنها تذكرنا بالألوان التي على قدم الطاووس. وفي هذا إمكان وجوده، الذي ينصرف جانبٌ منه إلى العدم. فإذا نظرت ما لجبرائيل من الوجود بجود الحق، فإنه يوصف بوجوب الوجود. وإذا نظرت إليه بقدر استحقاق ذاته، فإنه يوصف بالعدم.. فهذا المعنىان، ممثلان في جناحي جبرائيل: الأيمان إضافته إلى الحق، والأيسر استحقاقه في ذات نفسه. كما قال الحقُ سبحانه وتعالى (وجعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثلى وثلاث ورابع).. وإذا وقع من أوج القدس شعاع، ينشأ منه نفسٌ يسمونها كلمةُ صغرى. ألا ترى أنَّ هذا، ما قاله الحق تعالى (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا) فللكافرين أيضاً كلمة. غير أن تلك الكلمة، صدى ممزوجٍ بحسب ما عليه أنفسهم.

ومن الجناح الأيسر، الذي يمتد عليه قدرٌ من الظلمة، يهبط ظلٌّ هو عالم الزور والغروب. ويشير إلى شعاع الجناح الأيسر، ما ورد في القرآن الكريم (وجعل الظلمات والنور) فإن تلك

الظلمة، التي نُسبت إلى فعل (جعل) أصبحت عالم الغرور. وأما ذلك (النور) الذي ورد ذكره بعد الظلمة، فهو شعاع الجناح الأيمن.. وبهذا المعنى قال تعالى (إِلَيْهِ يَصْدُدُ الْكَلْمَطِيبُ) إذ إنَّ الكلمة أيضاً من شعاعه. وكذلك قوله مثلاً، (كَلْمَةً طَبِيَّةً) فهي كلمة شريفة نورانية، من بين الكلمات الصغرى.

وإن لم تكن تلك الكلمة الصغرى في غاية الشرف، فكيف استطاعت أن تصعد إلى حضرة الحق تعالى. وأما أن الكلمة، والروح، تدلان على معنى واحد، فإن علامة ذلك (إِلَيْهِ يَصْدُدُ الْكَلْمَطِيبُ) وكذلك (تَرْجُمَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) فإن عبارة (إِلَيْهِ) ترجع في الحالتين إلى الحق جَلَّ قدرته. وعلى هذا المعنى، تدل أيضاً (النفس المطمئنة) إذ قال (ارجعي إلى ربك)، وعالم الغرور، ليس إلا صدىً وظلاً لجناح جبرائيل، أعني لجناحه الأيسر. بينما تصدر الأنفس المضيئة، من الجناح الأيمن.

قلت للشيخ: فما هي، في آخر أمرها، صورة جناح جبرائيل؟
أجاب: يا عاقل، كل هذه الأشياء ليست إلا رموزاً، إن علمتها على ظاهر معناها، كانت تخيلات لا حاصل لها.

قلت: وأين القرية التي قال الحق تعالى عنها: (أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا)؟

قال: ذلك عالم الغرور، الذي هو أليق محلًّا للكلمة الصغرى. ثم إن الكلمة الصغرى أيضاً قرية، لأن الله تعالى قال (تلك القرى نقصٌ عليك من أنبائها) و(منها قائم وحصيد) فهي كلمات الحق تعالى، كبيرة كانت أو صغيرة.

وعندما ارتفع على قصر أبي، فجر النهار. أغلق الباب الخارجي وفتح باب المدينة، وذهب التجار إلى أشغالهم، وتغيّبتْ عنِي جماعةُ هؤلاء الشيوخ، وبقيتْ في حسراً متشوقاً إلى صحبتهم، عاصتاً أنا ملي، وصارخاً: ياويلي، إظهاراً لعظمة حيرتي.. ولكن لا فائدة بعد.

يقول د. يوسف زيدان في شرح بعض ما جاء في الرسالة: قبل تقديم الإشارة الشارحة لهذا النص العجيب، لا بد من لفت الأنظار إلى أن لهذه القصة ديباجة (مقدمة) احتوت على قصة أخرى، ملخصها أنَّ أحد المنكرين على الصوفية، اعترض على أقوالهم واعتبرها هذياناً.. يقول السهروردي في ديباجة القصة: حدث في يوم من الأيام، في محفل ناس قد أصاب بصرهم الرمد، أن رجلاً سخر بمناصب سادات الطريقة وأئمتها. ولقصر نظره، تكلَّم من غير روية في مشايخ السلف. ولأجل تقوية رأيه المنكر، استهزأً بمصطلحات المتأخرین، حتى بلغت جسارتھ أن

أورد حكاية عن الأستاذ أبي علي الفارمذى، رحمه الله، قائلاً:
إنه سُئِلَ لِمَ سَمِّيَ ذُوو الْخُرْقَةِ الزُّرْقَاءِ بعضاً الأصوات أصوات
أجنحة جبرائيل؟

فأجاب: اعلم أنَّ أكثر الأشياء التي تشاهدتها حواسك، تتبعث
من أجنحة جبرائيل! وقال للسائل: إنك أنت أحد أصوات أجنحة
جبرائيل .. وقد أبى ذلك الخصم المتعسف، أن يعترف بمثل هذا
الكلام قائلاً: ماذا يمكن أن يكون معنى هذه الكلمة إلا هذياناً
مزخرفاً؟ ولما بلغ تجاسره إلى هذا الحد، شمرتُ عن ساعد
الجد، لأزجره.

وهكذا كان ذلك، هو السبب في تأليف السهوردى لهذه
القصة الرمزية التي ابتدأها بانطلاق الروح من أسر الطبيعة
(حجرة النساء) وارتقاءها عن أحكام المحسوس (قيود ولفائف
الأطفال) بملازمة الرياضات الصوفية والمجاهدات (الشروع)
التي تكشف ظلام الوجود الحسي.

والجسم الإنساني هو المقصود بقوله «قصر أبي» لأنَّه صنعة
الطبيعة، أما العالم العلوى (الروحاني) فهو مقصوده بقوله
«قصر أبي».. والشيوخ المتجردون، هم العقول السماوية التي
لا اتصال بينها وبين العقل الإنساني، إلا من خلال حلقة واحدة،

هي (العقل الفعال) الذي يمثل سقف العقل الإنساني، وقاعدة العقول السماوية العلوية.

وجبريل في النص، هو المعادل الموضوعي لروح القدس! ونتاج حفيظ جناحيه، هي الموجودات الكلية والأنواع، والموجودات الجزئية والشخصوص.. ولن أزيد هنا في بيان (دلالات) هذا النص الرمزي، لأن المراد من إيراد ما قدمناه ليس التعرف إلى (أفكار) السهوردي الإشرافية، وإنما الاقتراب من نصٌّ تراثيٌّ فريدٍ، مهجورٍ، والتعرف إليه أسلوبياً.. وفنياً.. وأدبياً.

حكايات بلغة النمل^(١) (لغة موران)

تتألف هذه الرسالة من ١٢ فصلاً وهي نماذج للتربية الروحية تساعد الإنسان السالك على التغيير الداخلي لذاته، فهي تؤثر من باطن، وتدعى الإنسان لأن يقف ويستوطن ذاته ليعبر على جوهرها، وعندئذ سيهتدى إلى طريق النجا، ثم يؤكده بقواعد سلوكيات المجاهدة والمعاناة للوصول إلى عالم الكمال والخلاص من واقع محكوم برقة القيود المادية والغرائز والمنافع الدنيوية الشخصية.

يقول في مقدمة الرسالة:

حمدأً لمبدع كلّ شيء، وفي الحقيقة، فإن جميع المخلوقات تتأنب للاعتراف بأنّ وجود الكلّ أو وجود كلّ الأشياء ليس

(١) ترجمها عن الفارسية د. عادل محمود بدر، أستاذ مساعد بكلية آداب طنطا، دكتوراه في فلسفة الملا صدر الشيرازي

مطلوبـا إـلا لـكـي تـشـهـدـ (الـجوـهـرـ)، وـبـارـكـ اللـهـ عـلـىـ مـحـمـدـ
المختارـ سـيـدـ أـوـلـادـ الـبـشـرـ وـآلـهـ وـسـلـمـ. ذـلـكـ أـنـ وـاحـدـاـ مـنـ الـأـصـدـقـاءـ
الـمـؤـيـدـينـ، وـالـذـيـ يـمـ وـجـهـ شـطـرـ الـوـجـودـ الـضـعـيفـ قـدـ التـمـسـ
مـنـيـ وـسـائـلـيـ أـنـ أـكـتـبـ قـلـيلـاـ مـنـ الـعـبـارـاتـ التـيـ تـشـيرـ إـلـىـ قـوـاعـدـ
وـنـهـجـ السـلـوكـ، وـوـعـدـنـيـ بـحـفـظـهـ عـنـ غـيـرـ أـهـلـهـ مـنـ الـأـشـخـاصـ
إـنـ شـاءـ اللهـ وـكـانـتـ هـذـهـ الـعـبـارـاتـ أـوـ الـجـمـلـ حـكـاـيـاتـ تـسـمـيـ لـغـةـ
. النـمـلـ وـبـالـلـهـ التـوفـيقـ».

الفصل الأول

من أعماق الظلام برزت قافلة من النمل ذات عدد قليل
مطوقة الخاصرة من كمائتها، واستقرت أولا ثم هامت في
الصحراء لكي تحصل على قوتها. وبالصدفة كانت هناك بعض
البراعم النابضة التي احتلت المنطقة لمشاهدتها. وفي الصباح
حيث قطرات الندى تتراكم على وجوه البراعم.

سألت نملة منهم الأخرى: ما هذا؟

قال البعض: إنّ منبع هذه قطرات هو الأرض.

وقال الآخرون: إنّها من البحر.

وفي حالة احتدام الجدل نهضت وسطهم نملة حاذفة وقالت:
انتظروا لحظة (لتروا). إنّ الطريق المائل له جاذبية نحو جهة

أصله، وميل للالتحام بمنبعه. وكلّ الأشياء إنما تتجذب نحو اختيارها (أو لعل المقصود هو أنها تتجذب بمحض اختيارها، أو أن اختيارها يجذبها نحو أصلها)، ألا ترون أن طين الأرض مقدوف تجاه مركز الأرض، لأن أصله حجري ثقيل، ولأن القاعدة هي كلّ الأشياء تعود إلى أصلها. إنّ الأرض حفرة ممتدّة، والطين في نهاية الأمر يهبط، وأيّ شيء تراجع للظلام الخالص يكون ظلاماً أيضاً لأنّه مصدره. وعلى الجانب الآخر فإن النور الأبدى حقيقة تبدو أكثر وضوحاً بملاحظة الجوهر الشريف (الروح) والله يحرّم أي فرض منطقى في الاتحاد. وكل ما يلتمس النور إنما جاء من النور.

وفي احتدام المناقشة بين النمل ترعرع دفء الشمس وازداد، وببدأ الندى ينفضُّ ويتلاشى من على وجه البراعم. وبعد ذلك جاءت النمل لتدرك أنها لا تنتهي للأرض (أي القطرات)، ورجعوا الهواء، كأنما هي تنتهي إليه. «نور على نور يهدي الله نوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس» و«إنَّ إلى ربِّ المنهى»، «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه».

الفصل الثاني

كانت هناك بعض السلاحف تمتلك وكراً على الشاطئ. وفي وقت ما كانوا يحدّون إلى البحر عند استجمامهم. وفي تلك

الأشاء كان هناك طائر منقوش يلعب على سطح الماء كعادة الطيور، فكان يغطس أحياناً ويظهر للعيان. تساءلت واحدة منهم: أهذا الم قبل هوائي أم مائي؟ ثم قالت أخرى: لو لم يكن مائياً فماذا عساه أن يفعل بالماء؟ ثم قالت ثالثة: لو أنه مائي لما استطاع الحياة بدون الماء.

ولقد قرر القاضي المخلص مادة الحكمة وهي:

«لحظة وانظر وفقاً لأموره فإذا استطاع الحياة بدون الماء فإنه لا يكون مائياً ولا محتاجاً للماء وبرهان ذلك السمك فإنه عندما يترك الماء، فحياته لا يمكن أن تستمر. فجأة هبت عاصفة هوجاء فأثارت الماء».

وعندئذ انطلق الطائر الصغير إلى الأفاق، إبان ذلك.

قالوا للقاضي: إن رضاعنا يتطلب تفسيراً.

فاقتبس القاضي قول أبي طالب المكي قدس الله روحه عن نبينا عليه الصلاة والسلام من باب الوجد والخوف حرفيما يلي: «عندما أزال ترتيب العقل عنه رفع عنه الكون والمكان»

قال: في حالة الوجد زال المكان عن النبي. وأنه يقول عن حسن صالح (الحسن البصري) في باب المحبة ناظراً لمقام الخلة: «ظهر له العيان، فطُوي له المكان».

والعظماء من البشر إنما يعتبرون الأهواء من بين حجب التعقل وأنَّ الجسم كالمكان. والحسين بن منصور يقول فيما يتعلق بالمحترف عليه الصلاة والسلام: «أنه أغمض العين عن الأئمِّ» من الأنس.

ويقول أيضًا: الصوفي وراء الكوينين وفوق العالمين ويواافق الجميع على أنه طالما كانت الحجب موجودة لم تزل، فإن المراقبة لا يمكن أن تتحقق شيئاً. والنفس التي تتم لها المشاهدة إنما هي مخلوقة ومحدثة.

عندئذ صاحت جميع السلاحف: كيف يمكن ل Maherية متمكنة في المكان أن تُرفع من المكان، كيف يمكن أن تتحرر من اتجاهاتها الستة؟

أجاب القاضي: إنني رويت القصة تفصيلاً من أجل هذا الغرض.

عندئذ صاحت السلاحف: قد عزلناك، أنت معزول.
ثم قذفته بالطين وعادت إلى وكرها.

الفصل الثالث

في قصر سليمان عليه الصلاة والسلام كانت جميع الطيور حاضرة ما عدا العندليب، لهذا فإن النبي سليمان قد عين طائراً

كسفير من أجل أن يخبر العندليب: أنه من الضروري أن يقابل كلَّ مَنَّا الآخر. وعندما أرسل العندليب رسالة لسليمان عليه السلام فإنه لم يغادر عشَّه، ولكنه تحول إلى رفاقه قائلاً: إنْ أمر سليمان عليه السلام في هذه الحالة لم يكن كذباً، إِنَّه وَعْد باللقاء. ولما كان عشُّنا لا يسعه فإنَّ اللقاء لا يمكن بالداخل، لو كان هو خارجه، وليس هناك طريق آخر لذلك.

صاحب شيخ بينهم إذ الوعد «يُوْمٌ يَقُولُونَه» بالحقيقة والإعلان «كُلَّ لَدِينَا مُحَضِّرُونَ» وإنَّ إِلَيْنَا إِبَاهِمَ «فِي مَقْدُودٍ صَدَقَ عَنْهُ مَلِيكٌ مُقْتَدِرٌ» يصبح حقيقة ويكون هذا هو الطريق:

- حيث أنَّ عشُّنا لا يسع الملك سليمان وعليها أن نترك العش ونذهب له «فَأَيُّ مَقْبَلَةٍ أَخْرَى سُوفَ تَكُونُ مُسْتَحْيِلَةً».

ولقد سئل الجنيد رحمة الله عليه: ما التصوف؟ فأنسد هذا

البيت من الشعر:

وَغَنِيٌّ لِي مِنَ الْقَلْبِ
وَكَانُوا حِيثَمَا كَانُوا

الفصل الرابع

كان الملك كيحسرو يمتلك كوثراً لإظهار العالم، حيث كان يحب أن يبحث هناك. ولقد رأى الكون وأصبح عارفاً بالأشياء

الخفية. ولقد صنع الكوثر، بواسطة عبدٍ، على هيئة مخروط.
وبعد ذلك وضعه بحيث يمكن فتحه وغلقه بطريقة آلية.

وعندما أراد رؤية أحد الأشياء المختلفة فتح الغطاء. وعندما
فتح جميع المعلقات فإنّها لم تظهر، وعندما قام بإغلاقها ظهرت
من الآلة الدوارة. وعندما كانت الشمس في منتصف السماء
وضع الكوثر في مواجهتها، وعندما سقط ضوء الشمس عليها
فإن كل رسومات وخطوط العالم ظهرت هناك.

و«إذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها
وحقت يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملقيه». «لا
تخفي منكم خافية». «علمت نفس ما قدمت وأخرت».

شعر:

ولما سمعت من سيدِي وصفَ كوثُر جم
لقد كنت أنا نفسِ كوبِ جم لِإظهارِ العالم

شعر:

وتكلموا عن كوبِ إظهارِ العالم
وملابسنا الصوفية هي ذاتها الكوثر القديم المدفون
وهذا من الجنيد: «طوارق أنوار تلوح إذا بدت»
فأصوات الليل الساطعة تلوح وتلمح عندما تظهر

الفصل الخامس

شخص ما يصبح صديقاً لأحد ملوك جنوه قال له: كيف أراك؟

أجاب: إذا أردت أن تحظى بميزة رؤيانا، ضع بعض البخور في النار وألق بعيداً بقطع الحديد الموجودة في المنزل، والمعادن السبعة التي تنتج صوتاً وضوضاء «والرجز فاهجر» وامجح كلّ شيء يسبب ضوضاء في ثبات ورقة «واصفح عنهم وقل سلام»، وبعد ذلك فانظر إلى الشباك بعد الجلوس في دائرة واحرق البخور، عندئذ سترااني.

أما الآخرون: لغيرهم مثل السوء.

سألوا الجنيد رحمه الله: ما التصوف؟

فأجاب : هم أهل بيت لا يدخل فيه غيرهم.

والخواجة أبوسعید الخراز رحمه الله قال:

وقامـت صفاتي للملـيك بأسـرها
وغابـت صفاتي حين غـبت من الحـبس
وغابـ الذي من أجـله كان غـيبتي
فذاك فـنـائي فـافـهمـوا يا بنـي الحـسـ

وفي ردـه على واحدـ قال هذا الـبيـت:

أَتِيهِ فَلَا أَدْرِي مَنْ تَبِعُهُ مِنْ أَنَا
سُوْىٰ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيْ وَفِي جَنْسِي
وَقَالَ أَحَدُ الصَّوْفِيَّةِ الْعَظِيمَاءِ: اقْطَعُ الْعَلَاقَ وَتَجَرَّدُ مِنْ
الْعَوَانِقَ حَتَّى تَشَهَّدَ رَبُّ الْخَلَقِ .
وَقَالَ: عَنْدَمَا تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ «أَشْرَقْتَ الْأَرْضَ
بِنُورِ رَبِّهَا وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ» وَ«قَبِيلَ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» .
سَلَامٌ عَلَى تَلْكَ الْمَعَاهِدِ إِنَّهَا شَرِيعَةٌ وَرِدِيٌّ وَمَهْبِطٌ شَمَالِيٌّ .

صَفِير سِيمِرْغ^(١)

السيمرغ طائر رمزيٌّ كان محطًّ نظر المتصوفة و منهم فريد الدين العطار في كتابه «منطق الطير» حيث تقرر الطيور الهجرة إلى السيمرغ، والسهروردي في هذه الرسالة يعرّف في مقدمتها بهذا الطائر الذي لا يملك لساناً أو لغةً، ويبحث في الطريق السالكة إليه شأن العطار، وبذلك تكون الرسالة كما وصفها السهروردي قائلاً: «هذه مجموعة من الجمل القليلة كتبها إخوان التجريد «والعزلة» ووصف ذلك؛ حدّته في قسمين: القسم الأول عن البدايات، والقسم الثاني عن النهايات.

القسم الأول، البدايات، في ثلاثة فصول هي:

١ - في فضيلة هذا العلم على جميع العلوم .

٢ - في ظهور أهل البداية .

٣ - في السكينة .

(١) ترجمها عن الفارسية د. عادل محمود بدر.

القسم الثاني، النهايات، في ثلاثة فصول هي:

- ١ - في الفناء.
- ٢ - في أنَّ الأكثَر علِمًا، يَكُون أكثَر كمالاً.
- ٣ - في إثبات لذة الإنسان ومحبته تجاه الله تعالى.
وَنُورُه جزءاً من هذه الرسالة.

* * *

يقول شيخ الإشراق:

وَهَذِه الرسالَة سُمِّيَّتْهَا «صَفِير سِيمِرَغ» ذَلِك الَّذِي لَا يَمْلِك
لِسَانًا أَوْ لُغَةً، وَبِقَاؤُنَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِ إِعْطَاءِ مُقْدَمةٍ عَنْ أَحْوَالِ
وَمُسَائِلِ هَذَا الطَّائِرِ الْجَدِيرِ بِالاحْتِرَامِ وَكَذَلِكَ إِقَامَتْهُ: فَهُوَ طَائِرٌ
مِشْرُقُ الْعُقْلِ يَظْهُرُ لِأَيِّ إِنْسَانٍ يَذْهَبُ إِلَيْهِ جَبَلُ قَافُ فِي فَصْلِ
الرَّبِيعِ، وَهُوَ يَعْتَزِلُ عَشَهُ وَيَنْتَفِعُ بِرِيشِهِ بِمِنْقَارِهِ عَنْدَمَا يَسْقُطُ ظَلُّ
جَبَلِ قَافِ عَلَيْهِ لِمَدَّةِ أَلْفِ سَنَةٍ مِنَ الزَّمَانِ «إِنْ يَوْمًا عَنْ رَبِّكِ
كَالْفَ سَنَةٌ مَا تَعْدُونَ».

وَهَذِهِ الْأَلْفُ مِنَ السَّنِينِ تَصْبِحُ فِي عَيْنَ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ مُثِلُّ
فَجْرٍ يَبْزُغُ مِنَ الشَّرْقِ حِيثُ الْمُلْكَةُ الْإِلَهِيَّةُ، فِي هَذَا الْوَقْتِ
يَصْبِحُ السِّيمِرَغُ مُوقَظًا لِلْغَافِلِينَ. إِنَّ إِقَامَتْهُ فِي جَبَلِ قَافِ.
وَمَلَاحِظَتْهُ تَصْلِي لِلْجَمِيعِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قَلَّةِ سَامِعِيهَا. وَالْجَمِيعُ
مَعَهُ وَالْجَمِيعُ لَيْسُوا مَعَهُ، كَمَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

أنتم معنا ولم تكونوا لنا

وأنتم روحنا ولذا فأنتم محظوظون

وظلّه هو الرعاية الروحية للمعذبين الذين وقعوا في نير
دوامة أمراض الضمور والاستسقاء، وهو يفيد مرضى الجذام،
وينزع ألوان الأسى المختلفة.

ويطير السيمرغ بلا حركة، ويحلق بلا سفر، كما أنه يقترب
متخطياً حواجز البعد. ولكنني أعرّفك، تلك هي جميع الألوان فيه
على الرغم من عدم تلونه، وعشة في الشرق والغرب أيضاً لا
يخلو منه أبداً. وتحتل كلُّ هذه الحالات مكانها بداخله وهو في
ذات الوقت حرّ منها جميّعاً، فكلها تملؤه وهو فارغ منها جميّعاً.

وتتبّق كل العلوم من ملاحظة ذلك الطائر. وفوق هذا كله
فإن كل الآلات الموسيقية مثل الأرجون «الآلات الموسيقية
العجبية» وغيرها قد اشتقت من صوت ذلك الطائر كما يقول
الشاعر:

لأنك لن ترى سليمان أبداً

فكيف تعرف لغة الطيور

من النار طعامه، ولو أنَّ واحداً ربط ريشة مع إغفاله لتلك
الريشات الموجودة على جناحه الأيمن، عندئذ تبتعد النار، فإذا

شاهد "شخص" ذلك، فإنه يطلب برهاناً أمام النار. إنَّ الصباح المنسم إنما يأتي من تنفسه، ولذا فإنَّ المحبين يررون له أسرار قلوبهم وعقولهم، وجميع الأشياء المكتوبة هنا مخفية (يقصد أنَّ ما هو مكتوب هنا يختلف عما هو كامن في الباطن) عما هو كامن في الصدر، وجزء منها يعتبر موجزاً لحسابه وملاحظته.

أولاً - القسم الأول: في البدایات

الفصل الأول: في فضيلة هذا العلم على جميع العلوم

من جميع الجهات يمكننا القول إنَّ المعلوم الشريف (أي علم القلب الشريف) له الأفضلية على العلوم الأخرى لأكثر من سبب.

أولاً: لأنَّ المعلوم (بالنسبة للقلب) سيكون أرفع وأكثر بروزاً، وعلى سبيل المثال فصياغة الذهب تكون أفضل من صنع حزمة سروج ببراعة، ذلك يفضل بالنسبة للذهب والأشياء الأخرى كالخشب والصوف.

ثانياً: لأنَّ حجج هذا العلم أقوى من آية حجج للعلوم الأخرى.

ثالثاً: لأنَّ العمل في تلك المسألة سيكون أكثر خطورة وأعظم ميزة، وبالمقارنة مع العلوم الأخرى نجد أنَّ جميع أدلة الأفضلية وعلامات الترجيح موجودة في هذا العلم.

وبملاحظة «المعروف» و«المعلوم» يبدو أنَّ هدف هذا العلم هو الحقيقة، وأنَّه من غير الممكن مقارنة الأشياء الأخرى الموجودة في جلال هذا العلم وعظمته. وبالنظر إلى تحقيق الدليل وتأييد البرهان، فإنه من الراسخ أنَّ المشاهدة أقوى من الجدل.

وعلماء الكلام يعتقدون، أنه مما يتفق مع الشرع، أنَّ الحق تعالى سوف يعطي الإنسان العلم الضروري عن صفاته وجوده، ولأنَّ ذلك «علم» شرعي، فاكتساب معرفة من هذا النوع تكون يقيناً أرفع من تلك المعرفة التي تتطلب حمل مشاكل الملاحظة وجهود التعلُّم، والهبوط إلى موقع الشك وإقامة الشكوك.

وأحد الصوفية سئل مرَّةً، ما الدليل على وجود الصانع؟ أجاب: بالنسبة لي لقد أغنى الصباح عن المصباح، وواحد آخر من الصوفية قال أيضاً: إنَّ المظهر الخارجي للفرد الذي يبحث عن الحقيقة من خلال ألوان الجدل يكون مثل الباحث عن الشمس بواسطة المصباح.

ولأنَّ علماء الأصول قد قبلوا ووافقو على أنَّ الحق تعالى في العالم الآخر سوف يهب الإنسان إدراك الكشف ليرى الله بلا واسطة، بلا جدل، بلا برهان وتتبه، وبلا اعتبارات مع أهل

الحقيقة. وطبقاً لهذه المبادئ تنشأ إدراكات من هذا النوع في قلب الإنسان لكي يراه (أي: الله تعالى) في هذا العالم بدون أي توسط أو برهان. وذلك طبقاً لما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رأى قلبي ربي» وعليّ كرم الله وجهه يقول : «لو كُشف الغطاء ما ازدلت يقيناً».

وليس مناسباً هنا تفصيل الأسرار المحبوبة في مثل هذا المقام.

وبنظرنا إلى الأهمية فإنه ليس هناك من شكٌّ، فبالنسبة للإنسان، ليس هناك أكثر أهمية من السعادة العظمى، وبالأحرى فلا يمكن بحث جميع المطالب في رسالة مختصرة.

أما أعظم معاني النجاح ف تكون في المعرفة. ولذلك فإنه من كل النواحي يثبت لنا أن المعرفة (أي الصوفية) أرفع من كل المعرف.. والجنيد رحمه الله قال: «لو أني أعرف أنه في هذا العالم تحت السماء يوجد علم أشرف من تلك المعرفة التي عاينها المحققون، لشغلت نفسي بشرائه، وكنت قد اجتهدت لإيجاد أفضل الطرق حتى أفوز به».

لطائف الكلمات

من أقوال السهرودي:

من لم يتهج بأعاجيب سرادقات العليين، فهو من الغافلين،
ومن لم يذق مائدة رب العالمين فهو من الخاسرين، ومن لم يتلذذ
بلذة أشعة أنوار المقربين فهو من المحروميين.

إذا ضبطت نفسك بالزائد على مهمّ بدنك الضروري،
واستكملت بالعلم : أتيت على كثير من الفضائل.

لا تتكلّم قبل الفكر، فكّر مراراً ثم قل، فإن كنت بنطقك
صابراً من الصالحين، فيوشك أن تصير بالصمت ملكاً من
المقربين.

الحقيقة شمسٌ واحدةٌ، لا تتعدد بتعدد مظاهرها من البروج،
المدينة واحدة، والدروب كثيرة، والطرق عسيرة يسيرة.

أول الشروع في الحكمة الانسلاخ عن الدنيا، وأوسطه
مشاهدة الأنوار الإلهية، وآخره لا نهاية له.

لا تحدث نفسك، إن كنت امرءاً ذا جدّ، أن تتکي على سرير الطبع وتقول: «قد أحطت من العلوم الحقيقة بشرطها، ولنفسی علىٰ حق، وكيف وقد فزت بقصب السبق علىٰ إخواني».

إنَّ هذه خَطْرَةٌ ما أفلح من دام عليها قط.

كلَّ هذه العلوم صغير يستيقظك من رقدة الغافلين، وما خُلقت لتنغمس في مهلك التبه يا مسكون.

انزعج بقوة، وارفض أعداء الله تعالى فيك، واصعد إلى الطاسين لعلك ترى وجه ربك بالمرصاد.

ليكن يومك خيراً من أمسك ولو بقليل، وإلا فأنت من الخاسرين، روح سرّك بتركِ ما تقلت عليه تبعاته، اذكر موتك وقدومك على الله عزّ وجلّ في كل يوم مراراً، احفظ الناموس يحفظك، لا تؤخر إلى غدٍ شغل يومك، فإنَّ كلَّ يوم آتي بمشاغله، ولعلَّك لن تلحقه.

كن ذا عزيمة، فإن عزائم الرجال تحرّك الأسباب..

وبباب الحق قومٌ لا تشغلهن صدمات الأسباب، ولا يحزعنون من البلاء، فإن البلاء صراط الله، به عبرت قواقل الرجال، ولو سلكته لوجدت عليه آثارهم، وترعرفت منه أخبارهم، فكلُّ أرضٍ لم يصبها صيَّبٌ من المصائب أبت أن تنبت نبت النجاح.

لكل قهوة سكارى، ولكل بحرٍ مغرقون، كم بين صائرٍ في
الظلمات زحزح عن نور الشمس، وبين حائرٍ أغرقه نورها في
قربها الأقرب.

أن تعبد الله حبًّا خيئًّا من أن تعبده خوفًا، فإن التعبد بالتخويف
دين اللئام.

أعظم الملكات (= السلوك إلى الله ومشاهدة الأنوار العقلية)
هي الموت حين ينسلخ النور المدبر من هيكل الظلمات (=
البدن) ويبيرز إلى عالم النور، ويصبح معلقاً بالأنوار القاهرة،
ويرى الحجب النورية كأنه معلق بالنور المحيط، وهو مقام
عزيز جداً

العقل نور الله، ولا يهتدى إلى النور غيرُ النور، لا تظهرُ
صورة فردانية إلا في مرآة فردانية، النفس مرآة الله، ومرآة الله
لا تشبهها مرآة الأجسام، إذا انحلَّ التركيب رجع الوحدَ إلى
الوحيد.

لولا إراعة المبطلين لما نطقَ الفطرة بشواهد الإيمان،
ادفعوا سموم الحادثات بحمىَ الأزل، إذا رضي صاحب اليد
العليا خسرت الوشاة.

اذكري أيتها المدينة الفاضلة ربك بأصواتك المتجمعة،
وبالصياح والتفخيم والتعظيم، ما أبهاك يا مدينة! لحني بذكر الله
تعالى أسواقك ومشاريعك ومسالكك، وبيوتك وسطوك عند
بلغ رأس النيران إلى مراسم التسبيح، وكبّري تكبيراً جهوريأً
يهزم جنود الشيطان، ويقهر عبده الطاغوت، ويرعد خبيثات
النفوس، ويهزم النفوس، ويحرّك الأشباح. الصيحة الجمهورية
بتسبيح فريضة في كتاب الله المسطور بالبيان.

أمر الله بالرصد، إذا توغلت في الهوى علمك الهوى، كيف
يكون كتاب الله منشوراً يراه العاقلون ولا يراه الغافلون، ما شكر
الرب بأفضل من الصبر، ولا أرضاه كالرضى.

من أشعاره وموشحاته

ترك السهوردي عدداً من القصائد والمقطوعات والأبيات المفردة، التي استطاع تلامذته أن يجمعوها، ولو لم تشغله بحوثه وكتبه في حكمة الإشراق لكان له شأن آخر في الشعر، وتعدُّ أشعاره الغزلية من أرق ما قيل في الغزل الرمزي المتعالي، وهو فيها عذب المورد، مجنب الخيال، عميق الفكر، ثرُّ القرية، وهي بالرغم من أنَّ أغلبها يحمل جذور فلسفته إلا أنه لا يتقلها بالمصطلحات الصوفية أو الفلسفية، ويحس قارئها أنه أمام مقطوعة من الغزل الرفيع. أما ما وصلنا من موشحاته فتدل على تمكن من هذا الفن من حيث البناء الفني الذي يدل على ذوق رفيع، ومما لا شك فيه أنها كانت تتشدد في حلب وهي الشهيرة بموسيقاها وغنائها، وإنَّ موشحاً مثل موشح «ياملينا» بلغ مرحلة متقدمة من النضج الفني يعود إلى القرن السادس الهجري يؤكد لنا النشأة المشرقية للموشحات قبل أن تفد إلينا الموشحات الأندلسية.

موشح یا ملیحہ

فيه أهل الحي هاموا
وحل فيه الغرام
وانجلى عنى الظلم
فطوى العيش السلام

يَا ملِحَادْ تَجَانِي
سِيمَا لَمَا تَحَدَّى
قَاتْ لَمَا لَاحْ يُجْلِى
هَكَذَا العَيْشُ وَإِلَّا

دوسرا

صفو كاس الحب صرفا
وانثى جيداً وعطها

جَبَّازًا لَمَّا سَقَانِي وَجَبَّانِي بِالْتَّدَانِي

دor

وجلـي عنـي الـظـلام فـطـى العـيش الـسـلام

**مُعَذَّفِي القَابِ حَلَّاً
هَذَا الْعَيْشُ وَالْآ**

دوسرا

تدخل الحان وتعشق وصباح الوصل أشراق

يَا خَلِيَّ الْبَالِ هَلَّا
إِنَّ لَيْلَ الصَّدَّ وَلَيْلَ

د و ر

لَا يَضاهِي مَقْامَ فُطُّعَةِ العَيْشِ الْسَّلَامِ

وَمَقَامُ الْحَبْ حَلَّا
هَذَا الْعَيْشُ وَالْأَ

موشح على العقيق

عَلَى الْعَقِيق^(١) اجْتَمَعَا
نَحْنُ وَسَوْدُ الْعَيْنَوْنِ
أَطْنَ مَجْنَوْنَ لِيَانِي
مَا جُنَّ بَعْضَ جُنُونِي

دُورِ
بِأَدْمُعِي غَسَّلُونِي
هَذَا قَتِيلُ الْعَيْنَوْنِ
إِنْ مُتَّ وَجَدَ أَعَلَّ يَهُمْ
نَوْهُوا عَلَيَّ وَقُولُوا
أَيَا عَيْنُونِي عَيْونِي
عَلَى الَّذِي فَارَقُونِي
فِي أَفْوَادِي تَصَبَّرِ

دُورِ

سوق

وَهُوَيْ يُنْزَهُ عَنِ الْمُمَاثِلِ
إِلَيْكَ لَا نَحْوَ الْمَنَازِلِ
يَا حَبَّذَا إِنْ كُنْتَ قَاتِلِ
مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ فَهُوَ رَاحِلِ
إِنْ صَحَّ أَنْكَ لِي مُوَاصِلِ
وَأَلَذَّ مِنْ إِحْدَى الْوَسَائِلِ
شَوْقِي يَجْلِلُ عَنِ الْوَسَائِلِ
شَوْقِي يُجَدِّدُهُ الزَّمَانِ
بُشِّرْتُ أَنْكَ قَاتِلِي
زَوَّدْ فُؤَادِي نَظَرَةً
رُوحِي فِدَاءً مُبَشِّرِي
مُسْتَشِفِعْ بِوَسَائِلِ

(١) العقيق، مكان يرمز به إلى عالم الصفاء والكمال الإلهي.

صياد

فَأَثْيَالُ النَّقَاءِ مِيعَادُنَا
فَدُمُوعِي نَفَذَتْ بِالْمُنْحَنِي
فَتَرَفَّقَ أَيُّهَا الْحَادِي بِنَا
نَنْدُبُ الْحَيَّ وَنَبْكِي الْوَطَنَا
كُلُّ مَنْ حَجَّ إِلَيْهَا فَتَنَا
لَسْتُ أَعْنِي بِكُمْ سُرْمَرَ القَنَا
يَوْمَ عِيدٍ فِي مَنْيٍ إِلَّا أَنَا
حَرَمَ الصَّيْدَ عَلَى مَنْ فِي مَنِي
مِنْ خَبَا الْبُرْقَعِ وَجَهَا حَسَنَا
قَالَ: وَالصَّيَادُ مَنْ؟ قَلْتُ: أَنَا

قَفِ بِنَا يَا سَعَدَ نَنْزَلُ هَا هُنَا
وَابْتَغِ لِي عَبْرَةً أَبْكِي بِهَا
هَذِهِ الْخِيفُ وَهَاتِيكَ مَنْيٍ
وَاحْبِسِ التَّدْلِيْجَ عَنَّا سَاعَةً
أَهْلُ مَكَّةَ هَكَذَا مَكَّتُمْ
قَتَّلْتُ سُرْمَرَكُمْ سَادَتْنَا
كُلُّ مَنْ آمَلَ شَيْئًا نَالَهُ
قَلْتُ: يَا صَيَادَ قَلْبِي حَلَّهُ
قَالَ: مَنْ تَعْنِي؟ وَقَدْ أَبْرَزَ لِي
قُلْتُ إِيَّاكَ؟ فَأَوْمَأْ خَجَلًا

حنين

وَصَبَتْ لِمَقَاها الْقَدِيمِ تَشَوْقاً^(١)

خَلَقْتَ هِيَاكِلُهَا بِجَرَاعَهِ الْحِمِي

(١) تحزن النفس للعودة إلى مبدئها وتخلصها من أسر الجسد، وهذا ما نجده عند سادة الصوفية كابن سينا في عينيته وجلال الدين الرومي في حديثه عن صوت الناي.

وَتَجَرَّدَتْ عَمَّا أَجَدَ وَأَخْلَقَ
 رَبِّ عَفَّتْ أَطْلَالُهُ فَتَمَرَّقَ
 فَيَرُومُ مُرْتَبِعًا يَرُوقُ الْمُرْتَقِي
 رَجَعَ الصَّدَى أَنْ لَاسْبِيلَ إِلَى اللَّقا
 أَسْفَاً عَلَى شَمْلِ مَضِيٍّ وَتَفَرَّقَا
 ثُمَّ اِنْطَوْى فَكَانَهُ مَا أَبْرَقَا

مَحْجُوبَةَ سَفَرَتْ وَأَسْفَرَ صَبُحَهَا
 وَتَلَفَّتْ نَحْوَ الدِّيَارِ فَشَاقَهَا
 وَغَدَتْ تَرَدَّدَ فِي الْفَضَاءِ حَبِيبَهَا
 وَقَفَتْ تُسَائِلُهُ فَرَدَ جَوابَهَا
 فَشَكَّتْ بِعَيْنِ الْحَالِ مَعْهَدَ عَهْدَهَا
 فَكَانَمَا بَرَقُ تَلَاقَ بِالْحَمِي

أقول لجارتي

وَلَيْ عَزْمُ الرَّحِيلِ إِلَى الدِّيَارِ^(۱)
 فَإِنَّ الشَّهَبَ أَشْرَفَهَا السَّوَارِي
 وَحَالُ الْمُتَرَفِّينَ إِلَى بَوَارِ
 كَأَنَّ اللَّيْلَ بُذَّلَ بِالنَّهَارِ
 فَذَكَرْنِي بِهِ قَرْبُ الدِّيَارِ
 وَفَوْقُ الْفَرَقَدِينَ عَرَفَتْ دَارِي
 وَأَرْبَعَةُ الْعَنَاصِرِ فِي جَوارِي
 إِلَى كَمْ أَجْعَلَ التَّنَنِ جَارِي
 فَلَا أَدْرِي يَمِينِي مِنْ يَسَارِي

أَقُول لِجَارِتِي وَالدَّمْعُ جَارِ
 ذَرِينِي أَنْ أَسِيرَ وَلَا تَنْتَهِي
 فَسَيِّرُ السَّائِرِينَ إِلَى نَجَاحِ
 وَإِنِّي فِي الظَّلَامِ رَأَيْتُ ضَوْءًا
 فِيَاتِينِي مِنَ الصُّنْعَاءِ بَرَقُ
 وَكَيْفَ يَكُونُ لِلْدِيَادَانِ طَعْمَ
 أَأَرْضَى بِالْإِقْلَامَةِ فِي فَلَةِ
 إِلَى كَمْ آخَذَ الْحَيَاتِ صَبِيِّ
 إِذَا لَاقِيتَ ذَاكَ الضَّوْءَ أَفْنِي

(۲) الْدِيَارُ: انظر الشرح السابق

ولي سرّ عظيم أنكروه يدقون الرؤوس على الجدار

خيال الظل

لمن كان في علم الحقيقة راقٍ
سريعاً وأشكالاً بغير وفاق
وتغنى جمياً والمحرك باق

رأيتُ خيال الظل أكبرَ عبرةً
شخوص وأشباح تمرُّ وتنقضي
تجيء وتمضي تارةً بعد تارةً

❖ ❖ ❖

من به بعدهمْ قد نزلة
سكنِ كانوا به عن عجله
واندب الرابع وسائل طلله
قد عصى قلبي على من عذله
ثورَ المحبوب فيه جمله
نار قلب لم تزل مشتعلة
 فهو يدرِّي أنه قد قتله
تطبِّ الحب وتهوى ملله

قف على المنزل واسأْل طلله
ولماذا رحل السكانُ عن
طال شوقي فابك إن شئت معى
خلّني يا صاح عن عذلك لى
لست أنسى ساعةَ البين وقد
أودع القلب وقد ودّعني
حرّم الوصل على عاشقه
أيها القلب المعنى هكذا

أنوار ليلى

أيها السائق يبغى دار ميَّ وعرِيباً دون ذيَّاك اللوئيَّ

حيّها يا ميّت الأشواق حيّ
 بين سفح السفح من سلْعٍ وطِئٍ
 فسجود الشكر فرضٌ يا أخِي
 فلسُلْبِ القلب يا صاح نهِيٌّ
 لا الذي تسليبه شيئاً فتَيٌّ
 إنما ميّت هوهاها ذاك حيّ

هذه البناءات باناتُ الحمى
 واطو ذكر البان في ظل النقا
 وإذا الحسن بدأ فاسجد له
 هذه أنوار ليلى قد بدت
 فالفتى ما سلَبْتَه جملة
 كلُّ حيٌّ في هوهاها ميّتُ

ماء مدين

على ظمآن بتنا إلى موقف النجوى
 مقدسة لا هنَّ فيها ولا على
 وجذنا عليهما من تحبُّ ومن تهوى
 وأسكنَّنا من راح إجلاله التقوى

ولما ورَدنا ماءَ مَدِينَ نَسْتَقِي
 نَزَّلنا على حيٍّ كرامِ بيروتهم
 ولاحت لنا نارٌ على البُعد أضرمت
 سقانا وَحِيانا فَأَحْيَا نُفوسَنا

شذرات

مكتومَةٌ عن سرَّ هذا العالمِ
 من قَبْلِ خَلقِ الله طينةً آدمِ

بَيْني وَبَيْنكَ في المَوَدَّةِ نِسْبَةٌ
 نَحْنُ اللَّذان تعارفَتْ أرواحُنا

* * *

مِثْلٌ مَا بِي لَيْسَ يَنْكَتُ
وَغَرَامِي فَوْقَ مَا زَعَمُوا

مَا عَلَى مَنْ باحَ مِنْ حَرَاجٍ
زَعَمُوا أَنَّنِي أَحْبَكُمْ

* * *

عَدَاوَةٌ غَيْرُ ذِي حَسْبٍ وَدِينٍ
وَيَرْتَعُ مِنْكَ فِي عَرْضٍ مَصْوَنٍ

بَلَاءٌ لَيْسَ يَشْبَهُهُ بَلَاءٌ
بِيَحْكُكَ مِنْهُ عَرْضًا لَمْ يَصْنُهُ

* * *

فَتَشَابَهَا فَتَشَاهِلُ الْأَمْرُ
وَكَانَهَا قَدْحٌ وَلَا خَمْرٌ

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتُ الْخَمْرُ
فَكَانَهَا خَمْرٌ وَلَا قَدْحٌ

* * *

نَ وَخَفْ بَوَادِرَ آفْتَهُ
وَالْعُمْرُ قَذْرٌ مَسَافَتَهُ

لَا تَأْمَنُ الْمَوْتَ الْخَوْءُ
الْمَوْتُ سَهْمٌ مُرْسَلٌ

وَأَنَّ صَاحِبَهُ مِنِّي عَلَى خَطْرٍ
مِنِ الْمَنْيَةِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالْحَذَرِ
وَيَحْمِلُ الذَّنْبَ أَحْيَا نَأْلَى عَلَى الْقَدْرِ

الْيَوْمُ أَيْقَنْتُ أَنَّ الْحُبَّ مُتَلَفَّةٌ
كَيْفَ الْحَيَاةُ لِمَنْ أَمْسَى عَلَى شَرْفِ
يَلْوُمُ عَيْنِيهِ أَحْيَا نَأْلَى بِذَنْبِهِمَا

ذاقَ طَعْمَ الْأَنْسِ مِنْ حَلَّ بَكَا
قدْ سَقَوْا بِالْقَدْسِ مِنْ مَشْرِبِكَا

يَا نَسِيمَ الْقَرْبِ مَا أَطْبَيكَا
أَيُّ عِيشٍ لَأَنَّاسٍ قَرْبَوَا

ما تُبَصِّرُ الْعَيْنَ لَهُ فِيَا
ما ضَرَكَ الْفَقْدُ لَنَا شَيْاً
إِنْ وَجَدْنَا يَ بَعْدَهُمْ حَيَا

بَانُوا وَأَضْحَى الْجِسْمُ مِنْ بَعْدِهِمْ
يَا أَسْفَى مِنْهُمْ وَمَنْ قَوْلِهِمْ
بِأَيِّ وَجْهٍ اتَّلَاقَاهُمْ

❖ ❖ ❖

المراجع

- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ٤ : تأليف الشيخ راغب الطباخ، دار القلم حلب.
- مجموعة دوم مصنفات شيخ إشراق شهاب الدين السهروردي: تصحيحات ومقدمة هنري كوربان، طهران ١٩٥٣.
- هياكل النور: مقدمة الشهربوري، تصحيح وتعليق : حسن السماحي، دار الهجرة بيروت.
- من السهروردي إلى الشيرازي: د. موسى الموسوي، دار المسيرة، بيروت.
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية المعروفة بالطبقات الكبرى: زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي ت ١٠٢١ هـ ، ج ٢، ت ١٠٢١، تحقيق محمد اديب الجادر، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية عام ٢٠٠٧ م.

- الوافي بالوفيات : صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي، ج ١، منشورات المعهد الألماني للأبحاث، ط ١ عام ٢٠٠٤ م.
- عيون الانباء في طبقات الاطباء : ابن ابي أصيبيعة موقف الدين ابو العباس احمد بن قاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي ، ج ٢ بيروت ١٩٨١ .
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان الإمام ابو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي ت ٧٦٨ ج ٣ ، الكتاب الإسلامي القاهرة ١٩٩٣ .
- أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي : الدكتور محمد علي أبو ريان، دار الطلبة العرب بيروت، ط ٢ عام ١٩٦٩ م.
- نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها : الدكتور عرفان عبد الحميد الفتاح، دار الجيل بيروت، ط ١ عام ١٩٩٣ م.
- السهروردي الحلبي (مؤسس المذهب الإشراقي) السهروردي المقتول ضمن كتاب شخصيات قلقة في الإسلام : هنري كوربان ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي طبعة القاهرة عام ١٩٩٤ م.

- معجم الأدباء : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ج ٩ ص، دار إحياء التراث العربي، ط ١ عام ٢٠٠١ م .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ،ج ٣، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٨٠ م .

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنفي عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، ج ٤ تحقيق عبد القادر ومحمد الأرناؤوط، دار ابن كثير مصر القاهرة، ط ١ عام ١٩٩٦ م

الفهرس

الصفحة

٥	حياته وعصره
١٣	صفاته وطموحه
١٧	شيوخه وتلامذته ومؤلفاته
٢٨	قبر خارج سور
٣١	السهروردي في الوجдан الشعبي
٣٥	السهروردي في حلب
٤٨	مراتب الحكماء
٥١	أخبار محققة
٥٨	طوالع الفلسفة الإشرافية
٦٦	رسالة في اعتقاد الحكماء
٧٠	قواعد الفلسفة الإشرافية
٨١	سمفونية شعرية في العشق
٨٥	قصة الغربة الغربية
٩٤	رسالة أصوات أجنحة جبريل

١٠٤	لغة النمل
١١٣	صفير سيمرغ
١١٩	لطائف الكلمات
١٢٣	أشعاره وموشحاته
١٣٢	مراجع

الطبعة الأولى / م ٢٠١٢
عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة

آفاق ثقافية

الإشرافية في جوهرها فلسفة استدلالية عقلية، وسلوكية إشرافية هدفها اتصال الأنوار التي هبطت إلى البرازخ والغواص بالنور الأتم الأقهري، وهي تشارك مع العرفان في إقرار أصول الكشف واعتمادها، كما أشرنا إلى النقطة الرئيسية التي تفترق فيها عن العرفان في تفسير الوجود. وبهذه الممازجة، وبنسخها الزرادشتية الذي سنتحدث عنه، وبهيكلها الفكري الإسلامي استطاعت أن تفتح طريقاً جديداً للعقل غير الطريق الذي سارت عليه المشائية، مُمددة العقل الإنساني والروح الإنسانية التائق بطاقة جديدة وحرية واسعة في الخلق والابتكار كانت مرتكزاً للكشف النوراني، وهيأت له قفزات سديدة وسريعة للوصول إلى الحقائق بعيداً عن قيود وجمود الاستدلال وشطحات الصوفية.



www.syrbook.gov.sy

E-mail: syrbook.dg@gmail.com

هاتف: ٢٣٢١٦٤

مطباع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٣ م

السعر (٥٠) ل.س